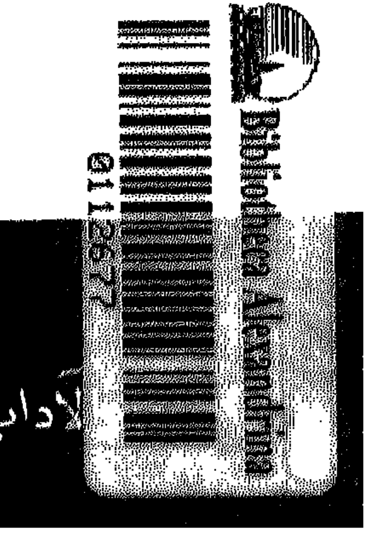
حنان قليل

نوال السعداوي



لآداب

حنان قليل

رواية

نوال السعداوى

حنان قليل

رواية

منشورات دار الآداب - بيروت

الطبعة الأولى
القاهرة
الطبعة الثانية
١٩٨٦ - بيروت
الطبعة الثالثة
١٩٨٩ - بيروت



حنان قليل

كانت تجلس القرفصاء على بلاط الحمّام البارد ، وجسمها الضئيل الضامر ينتفض من البرد ، وأسنانها تصطكّ ..

وأخذت تتلفّت حولها في الحمّام الواسع مذهولة .. أهذا هو الحمّام ؟ .. لم تكن تتصوّر أنه يمكن أن يكون في العالم حمّام بهذا الشكل ، فإنّ الحمّام الوحيد الذي رأته في حياتها هو حمّام العمدة .. وقد دخلته مرّة واحدة صدفة حينما كانت تلعب « المساكة » مع ابنة العمدة ، وابنة شيخ الغفر ودخلت لتختفي في حجرة في آخر الدّوار ، قالت عنها ابنة العمدة إنها الحمّام .. ورأت فيه طشتاً كبيراً ، وزيراً ، وفنطاساً ضخماً في نهايته صنبور صغير ، ولم تكن قد رأت صنبوراً قط في حياتها ، أو حمّاما .. وكان كل ما رأته في دار أبيها طشتاً وكوزاً من الصفيح تنقلهما أمها من قاعة الى قاعة كلما رغب فرد من أفراد البيت في الاستحمام .. وكانت ترى أمها تضع في هذا الطشت نفسه الدقيق لتنخله ، وفي موسم

الحصاد ترى الطشت مملوءا بالشعير ، وفي موسم « الذرة » مملوءا « بالذرة » .

وتلفّتت حولها في دهشة ، ومسحت بطرف جلبابها عينيها الملتهبتين وأنفها ، وأخذت تتأمل ذلك الشيء الابيض اللامع الذى يشبه الحوض الواسع ، والذى لو ملئ بالماء لغرقت فيه .. وتلك الصنابير الفضّيّة الكبيرة التى تعلوه ..

ورأت حوضاً آخر صغيراً معلقاً في الحائط تعلوه ايضا صنابير كبيرة برّاقة .. ورأت شيئاً عجيباً أبيض يشبه الكرسيّ وليس بكرسيّ .. وشيئاً آخر يشبه سلطانية الشوربة ولكنه كبير الحجم جداً يتّسع لسلق جدي أو خروف ..

وكفكفت دمعها واخذت تتحسّس بيديها السمراوين الخشنتين أرض الحمام الملساء الناعمة في مثل نعومة الصحن المصنوع من الخزف ..

ـ بت يا بهيّه .. يا بهيّه ..

جاءها صوت رفيع حادّ من خلال باب الحمّام المغلق .. فانتفضت لسماع اسمها .. ووقفت مذعورة حائرة .. ماذا تفعل ..

أصبح الصوت الرفيع أكثر حدّة فارتجفت بهية وهى تمسك بأكرة الباب البراقة تحاول أن تلويها لتفتح الباب ، ولكن الأكرة أبت أن تتحرّك فالصقت فمها بالباب وقالت بأعلى صوتها كما كانت تنادى على أمّها في الحقل :

ـ ده أنا جوه فى اللى اسمه ايه الحمام مش عارفه أطلع ..

ووقفت بهيّة مشدوهة حينما رأت أكرة الباب تتحرّك وحدها ثم ينفتح الباب .. ورأت أمامها امرأة بضّة نظيفة .. ثم رأت يد المرأة ترتفع الى أعلى ، ثم تهوي على وجهها النحيل في لطمة قوية ..

ـ انت قاعده جوه الحمام بتعملى ايه ٠٠ مين قالك تدخلى هنا ؟

ـ معهلش يا ستى ٠٠ والنبى يا ستى ٠٠ ربنا يخليكى ياستى ٠٠ مش أنا والنبى ٠ ده الراجل عبده اللى عندكم قال لى اقعدى هنا لغاية ماستّك تنادى عليكى ٠٠

وفهمت بهيّة منذ ذلك اليوم ما يجب في هذا البيت وما لا يجب ٠٠ وما عليها أن تعمله وما لا تعمله ٠٠ ما هو محلّل وما هو محرّم ٠٠ وكان يعمل معها في البيت نفسه طباخ اسمه عبده يبيت في حجرته فوق السطح ، وفتاة أخرى كبيرة تبيت معها على دكّة خشبية في أحد أركان المطبخ ٠٠ وانست بهيّه الى خديجه ، حتى راحت تروي لها كيف قتل والدها ٠٠ وهما تتسلّيان بالحديث قبيل النوم ٠٠ ولكن خديجة نفرت من الحديث خشية أن يطلع لها عفريت القتيل ٠٠ وفضّلت أن تنام ٠٠ وسرعان ما كان شخيرها يملأ المطبخ ٠٠

وظلّت عينا بهيّة مفتوحتين لا يغلبهما النعاس ٠٠ وراحت تفكّر في امّها ، وفي أختها الرضيع زينب ٠٠ وهمست لنفسها « يا ترى يا امه بتعملى ايه دى الوقت ؟ »

وعادت اليها صورة أبيها قبل مقتله بدقائق ، وهو يمسك بيدها في السوق ، ويضرب بعصاه الأرض فى قوة وبأس ٠

ووقفت عند هذه الصورة لا تجرؤ على الاسترسال في ذكرياتها ٠٠ فلقد بدأت تشعر بالخوف لو انها استعادت صورة مقتله ، وتكوّرت بجانب خديجة ، والتصقت بها تريد أن تلتمس من دفئها بعض الطمانينة والأمن ٠٠ وأغمضت عينيها لتنام ٠٠ لكن صورة امها بثيابها السوداء المتربة وقامتها النحيلة وبشرتها الصفراء تجلس على عتبة الدار ، وفي حجرها أختها زينب تمتصّ اللبن من ثديها الهزيل

الحصاد ترى الطشت مملوءا بالشعير ، وفي موسم « الذرة » مملوءا « بالذرة » .

وتلفّتت حولها في دهشة ، ومسحت بطرف جلبابها عينيها الملتهبتين وأنفها ، وأخذت تتأمل ذلك الشيء الابيض اللامع الذى يشبه الحوض الواسع ، والذى لو ملئ بالماء لغرقت فيه .. وتلك الصنابير الفضّيّة الكبيرة التى تعلوه ..

ورأت حوضاً آخر صغيراً معلقاً في الحائط تعلوه أيضا صنابير كبيرة برّاقة .. ورأت شيئاً عجيباً أبيض يشبه الكرسيّ وليس بكرسيّ .. وشيئاً آخر يشبه سلطانية الشوربة ولكنه كبير الحجم جداً يتّسع لسلق جدي أو خروف ..
وكفكفت دمعها وأخذت تتحسّس بيديها السمراوين الخشنتين أرض الحمام الملساء الناعمة في مثل نعومة الصحن المصنوع من الخزف ..
ـ بت يا بهيّه .. يا بهيّه ..
جاءها صوت رفيع حادّ من خلال باب الحمّام المغلق .. فانتفضت لسماع اسمها .. ووقفت مذعورة حائرة .. ماذا تفعل ..

أصبح الصوت الرفيع اكثر حدّة فارتجفت بهية وهى تمسك بأكرة الباب البراقة تحاول أن تلويها لتفتح الباب ، ولكن الأكرة أبت أن تتحرّك فالصقت فمها بالباب وقالت بأعلى صوتها كما كانت تنادى على أمّها في الحقل :
ـ ده أنا جوه فى اللى اسمه ايه الحمام مش عارفه أطلع ..
ووقفت بهيّة مشدوهة حينما رأت أكرة الباب تتحرّك وحدها ثم ينفتح الباب .. ورأت أمامها امرأة بضّة نظيفة .. ثم رأت يد المرأة ترتفع الى أعلى ، ثم تهوي على وجهها النحيل في لطمة قوية ..

ـ انت قاعده جوه الحمام بتعملى ايه ٠٠ مين قالك تدخلى هنا ؟

ـ معهلش يا ستى ٠٠ والنبى يا ستى ٠٠ ربنا يخليكى ياستى ٠٠ مش أنا والنبى ٠ ده الراجل عبده اللى عندكم قال لى اقعدى هنا لغاية ماستّك تنادى عليكى ٠٠

وفهمت بهيّة منذ ذلك اليوم ما يجب في هذا البيت وما لا يجب ٠٠ وما عليها أن تعمله وما لا تعمله ٠٠ ما هو محلّل وما هو محرّم ٠٠ وكان يعمل معها في البيت نفسه طباخ اسمه عبده يبيت في حجرته فوق السطح ، وفتاة أخرى كبيرة تبيت معها على دكّة خشبية في أحد أركان المطبخ ٠٠ وانست بهيّه الى خديجه ، حتى راحت تروي لها كيف قتل والدها ٠٠ وهما تتسلّيان بالحديث قبيل النوم ٠٠ ولكن خديجة نفرت من الحديث خشية أن يطلع لها عفريت القتيل ٠٠ وفضّلت أن تنام ٠٠ وسرعان ما كان شخيرها يملأ المطبخ ٠٠

وظلّت عينا بهيّة مفتوحتين لا يغلبهما النعاس ٠٠ وراحت تفكّر في أمّها ، وفي أختها الرضيع زينب ٠٠ وهمست لنفسها « يا ترى يا امه بتعملى ايه دى الوقت ؟ »

وعادت اليها صورة أبيها قبل مقتله بدقائق ، وهو يمسك بيدها في السوق ، ويضرب بعصاه الأرض فى قوة وباس ٠

ووقفت عند هذه الصورة لا تجرؤ على الاسترسال في ذكرياتها ٠٠ فلقد بدأت تشعر بالخوف لو أنها استعادت صورة مقتله ، وتكوّرت بجانب خديجة ، والتصقت بها تريد أن تلتمس من دفئها بعض الطمانينة والأمن ٠٠ واغمضت عينيها لتنام ٠٠ لكن صورة أمها بثيابها السوداء المتربة وقامتها النحيلة وبشرتها الصفراء تجلس على عتبة الدار ، وفي حجرها أختها زينب تمتصّ اللبن من ثديها الهزيل

الضامر .. ورأت نفسها تجلس الى جوارها تنبش في التراب وهى تحسّ آلام الجوع اذ مضت أيام كثيرة لم تصب فيهـا الا بعض كسرات من الخبز المقدّد ، وقطعة خيار مخـللّة عثرت عليها في قاع « الزلعة » ..

وانتبهت على رجل ، أفندي يقف أمام أمها ، ومعه نفوسة تاجرة الفراخ .. ولم تفهم كل الكلام الذى كانوا يقولونه ، ولكنها التقطت كلمة « بهيّة » من بين كلامهم فارهفت السمع لترى ماذا يمكن أن يكون لها من شأن في هذا الحديث الجادّ مع هذا الافندي النظيف ..

وسمعت الافندي يقول :

ـ هى سنّها كام ؟

فأجابت أمها :

ـ عشر سنين والنبى ..

فقال الرجل :

ـ ياه .. دى لسه صغيره قوي ..

فأجابت نفوسة :

ـ صغيرة ايه يا سى محمد .. دى لهلوبة في الشغل تمسح وتغسل ، وتحمل المحروسة الصغيره ، دى بكره تعجبك وتبقى عال قوى .. قومي يا بت يا بهيـــة .. قومي بوسي ايد سيدك ..

وقامت بهيّة .. إنها لا تستطيع الا أن تطيع بعد أن رات أمها تنكس رأسها دلالة على الموافقة ..

واخذها الافندي معه .. وقبل ان تمضي معه استدارت الى امّها الجالسة على عتبة الدار ، وفى حجرها اختها زينب قائلة:

ـ اقعدي بالعافيه يا امه . .خلّي بالك من زينب ..

وسمعت أمها تقول :

ـ الله يعافيكي يا بهية .. خلّي بالك من نفسك ..

ورأتها تمسح عينيها وأنفها بكمّها ، فاستدارت مسرعة ، وسارت في أثر الافندي •• وقلبها ينوء بثقل كبير ••

***

وفتحت بهيّة عينيها في الصباح الباكر على صوت رفيع حادّ يقول :

ـ بت يا بهيّة •• انت لسه ما صحيتيش ؟

فانتفضت بهيّة في فزع •• وفتحت عينيها •• وحينما رأت المطبخ الواسع ، وموقد الغاز ، والثلاجة الكبيرة عرفت أنها في مصر •• في بيت سيدها محمد أفندى الشهدي •• وليس في دارها بقرية كفر خناش •• وردّت :

ـ حاضر ياستي •• أنا صاحيه ••

وانطلقت بهيّة الى سيدتها •• فوجدتها مضطجعة على سريرها الوثير ، تحتضن طفلتها ، وترضعها من ثدي بضّ ، سمين ••

ـ انت يا بنت لسه نايمه ؟

ـ لا يا ستي أنا صاحيه من الصبح ••

ـ خدي اللفف دى اغسليها في الحمام ، وانشريها فى البلكونة •• وبعدين تعالى بسرعة علشان تحملي نوسه ••

ـ حاضر يا ستى ••

وفي لمح البصر طارت بهية لتفعل ما امرته به سيّدتها •• ثم حملت الطفلة الصغيرة على ذراعيها ، ووقفت تهدهدها ٠

ـ بس ياستي نوسه •• بس •• بس يا ستى نوسه بس •• بس •

وكفّت الطفلة عن البكاء ، واخذت بهيّه تتامل وجهها ، وعينيها ، وشفتيها •• فرأت أنها تشبه أختها زينب شبها غريبا •• وخيل لها انها هي فاحتضنتها بحنان وقوّة الى صدرها ، وقبّلتها ••

ولم تكد ترفع وجهها عن الطفلة حتى انتفضت على الصوت الرفيع الحادّ يقول غاضبا :

– انت بتبوسيها يابت يا بهيّه ؟ عمى في عينك .. اياك تانى مره تبوسيها ، واللا تقربى وشك من وشـها كده .. فاهمه ؟

وقبل أن تنطق بهية بحرف احست بيد تهوى على وجهها فى صفعة قوية ..

– حاضر يا ستى .. معلهش يا ستى .. والنبى ياستى حرمت ..

وابتعدت اليد عنها فهدأت دقات قلبها ، وانتظمت أنفاسها .. وحملت الطفلة بين ذراعيها ، وهى تحاول أن تبعد وجهها عنها بقدر ما تستطيع ..

وتأملت وجه الطفلة مرة أخرى .. فلم تر فيها ايّ شبه بينها ، وبين أختها زينب .. ورأت في عينى الطفلة استعلاء وقسوة يشبهان الاستعلاء والقسوة في عينى أمها . وشعرت انها تكره هذه الطفلة وتحقد عليها ..

أهكذا يكون جزاؤها ؟ إنها لم تفعل شيئاً ، لم تخطئ ، لم تكسر كوباً أو طبقاً .. لقد قبّلت الطفلة فحسب ، وقبّلتها لانها تحبّها وتحنو عليها .. أهكذا يكون جزاء الحبّ والحنان؟

واشاحت بوجهها بعيداً عن الطفلة واخذت تهدهدها بآلية ليست فيها عاطفة .. وتذكرت أختـــها زينب .. ترى من يهدهدها ؟ .. كثيراً ما كانت تسمع بكاءها وهي نائمة على الأرض في صحن الدار ، وقد تعرّى ردفاها ، وغشي التراب أنفها وفمها ، فتجري اليها ، وتمسح وجهها ، وتهدهدها ، وتقبّلها ، وترعاها حتى تعود امّها من الحقل .

ترى مَنْ يجري اليها الآن .. ترى من يمسح لها التــراب من فوق أنفها وفمها ؟

ونظرت بهيّه الى وجه الطفلة التى تحملها ، وجه ناعـــم نظيف بلا تراب ·· وهى تهدهدها ، وتلاعبها كلـــما همّت بالبكاء ·· أليست أختها زينب مثـــل هذه الطـــفلة ·· ألا تستحق أختها هذا الحنان ؟

ويصفعونها بعد كل ذلك لأن في قلبها حنانا !

وأحسّت بهية ، طفلة العاشرة ، بثورة عارمة تضطـرم في أعماقها ·· ولم تشعر إلا وهى تضع الطفـــلة على السرير ، وقد غمرها شعور بأنها لا تريد ان تحملها بين ذراعيــها ·· ووقفت بجوار الطفلة كالتمثال تنظر اليها فى كراهية ··

وبكت الطفلة تريد أن تُحمل ··

وكانت أمّها فى الحمّام ·· فنادت على بهيه بأعلى صوتها :

ـ نوسه بتعيّط ليه يا بنت يا بهيه ؟

ولم ترد بهيّه ، واقتربت من الطفلة ، وأخذت تربّت عـليها لتكفّ عن البكاء ·· لكن الطفلة التى كانت قد تعـــوّدت أن تُحمل ظلّت تبكي وتصرخ ··

وجاءها الصوت الرفيع الحادّ الغاضب :

ـ نوسه بتعيّط ليه يا بنت ؟

واغتاظت بهيـــــة ·· ممن ؟ لم تــكن تدري ·· أمن الأمّ القاسية ، التى تناديها غاضبة ·· أم من الطفلة المدلّلة التي تريد أن تُحمل ؟ ولم تعرف تماماً ماذا فعلت ·· لكنها رفعت يدها في الهواء وهوت بها على وجه الطفلة في لطمة قوية ·· ثم جرت الى باب الشقّة وفتحته ، وانطلقت في الشارع تعدو ·

ولم تهدأ بهيّة الا بعد أن ابتعدت عن بيت سيّدها كثيرا ··

ورأت رجلاً تبدو على ملامحـــــه الطيبـــــة ، فسألته عن « الكافورى » الذي يمكن أن يوصلها الى قرية كفر خناش ·· وكان الرجل طيّباً فدلّها على الطريق ·· وأعطــــاها بعض القروش ··

وجلست بهيّة على أرض « الكافورى » فقد أبى الكمسارى ان يمنحها كرسياً لتجلس عليه ، لأن القـــروش التي كانت معها لم تكفِ لتصرف بهـــا نصف تذكرة ٠٠ وتبرّع لهـــا الكمسارى بحيّز صغير من أرض العـــربة حتى تصـــل الى قريتها ٠٠ .

ووقفت العربة فى « كفر خناش »٠

وانتفضت بهيّة واقفة على قدميها ٠٠ وقفزت من العربة ، ووضعت ذيل جلبابها بين أسنانها واطلقت ساقيها للريح ٠

ووجدت باب الدار مفتوحا كعادته دائمـــا ٠٠ فاندفعت داخلة متلهّفة ٠٠ وقبل أن تصل الى صحن الدار سمعت صوت اختها زينب تبكي بحرقة ٠٠ فجرت اليها ٠٠ ورأتها كمـــا كانت تراها دائما عارية الردفـــين ، والتراب يغشى أنفهـــا وشفتيها ٠٠

ـ يا حبيبتي يا زينب !

وأخذتها بين ذراعيها ، وراحت تغمر وجهها بالقبلات ٠٠ وتنهّدت بهيّة في سعادة ٠٠ إنها تستطيع ان تحبّ زينب كما تريد ، وتحنو عليها كما تريد ٠٠ وتقبّلها كما تريد ٠٠ لن ينهرها أحد ولن تتلقّى عن ذلك صفعات أو شتائم ٠٠

وضمّت بهيّة أختها الى صدرها أكثر وأكثر ٠٠ وحينمـــا رأت أمّها تدخل من باب الدار قالت لها :

ـ ماهانتش عليّ زينب يا امه ٠٠ قلت آجى اشيلها ٠٠

وأجابت امها والدموع فى عينيها :

ـ بركه يا بنتي إللي جيتي ٠٠



كرامــــة

كان عقلي مشلولاً لا يريد أن يفكّر ٠٠ بل لا يستطيع ان يفكّر حتى لو أراد ٠٠ وكانت نفسيّتي منهارة مهلهلة ، فتاتها هنا وهناك في ثنايا أعماقي الحالكة فلا أهتدي الى شيء منها ٠

ولم أكن احسّ شيئاً إلاّ قدميّ المنهوكتين وهما تنتقــــلان بلا وعي في خطوات ممزّقة ضالّة ٠٠ وبعــــد أن همت في طرقات عديدة لا أكاد أتبيّنها وجدتني فجأة أمام بابه ٠٠ باب مكتبه ٠٠ وقرأت اسمه على الرقعة النحاسيّة الصــــفراء ٠٠ فارتجفت ٠٠ وهممت أن أستدير ، وأعود من حيث أتيت ، فلم أستطع ٠٠ وقفت أحملق كالمعتوهة في حروف اسمــــه : « ضياء الدين توفيق ! » آه ٠٠ إنه اسمه ٠٠ إنه هو ٠٠ إنه مكتبه ! ٠ باب مكتبه نفسه الذى شهد خروجنا ودخولنا كل يوم لمدة خمس سنوات كاملة ٠٠ وكثيراً ما كنــــا نقف أمام هذا الباب في الظلام ، ويأخذني بين ذراعيه ويقبّلني ، وتتراءى لي الرقعة النحاسيّة وعليها اسمه ، وكأنها تهتــزّ من فرط السعادة والنشوة ، وتتراقص حروف اسمه وتضيء بنور

جميل فاهمس له قائلة : ضياء ٠٠ أحبّك ! ٠٠ خمس سنوات كاملة ، بأيامها ولياليها ، أحببته ٠٠ وعشت لحظات عمري معه سواء كنا معاً أو فصلت بيننا آلاف الاميال حينما كان يسافر ، وكثيراً ما كان يسافر في بعثاته الصحفية ٠٠

ثم ٠٠ آه ٠٠ لعلّني انسى !

كان اليوم منذ سنتين ٠٠ صباح اليوم الذى كنت أستلقي فيه على فراشي ، وأتثاءب ، واستعيد في سعادة كلماته الرقيقة لي ، وأتحسّس موضع شفتيه الملتهبتين على وجهي ٠٠ وأخذت أقلّب صفحات جريدة الصباح في تكاسل لذيذ ٠٠

وفجاة خارت قواي ٠٠ وتوقّف قلبي عن ضرباته ٠٠ وأخذت أذناي تصفران صفيراً عالياً جعلني صمّاء ٠٠ واهتزّت الكلمات السوداء المطبوعة أمام عيني لكني استطعت أن أقراها مرة ومرتين وثلاثا ، وأنا لا أحسّ بنفسي ٠٠ وكأنني في حلم ٠٠

وقرأت للمرة العشرين خبر زواجه وأنا لا أصدّق ٠٠ وظننته رجلاً آخر يحمل اسمه ٠٠ وجريت كالملسوعة الى التليفون ، وقالت لي شقيقته في سخرية لا تخلو من مزيج من الشفقة والتشفّي :

ــ أيوه ٠٠ ضياء ٠٠ إنه في بيته يا « شوقيه » ٠٠ لقد تزوّج ٠ ألم تعرفي ذلك ؟

وكانت بي بقية حياة ، فاستطعت ان أردّ عليها قائلة :

ــ أشكرك ٠٠

ولكن ٠٠ مابالي اقف بعد سنتين من البعد عنه كالمتوهة امام باب مكتبه ٠٠ لا أستطيع الدخول ٠٠ ولا استطيع العودة ؟ ٠٠ آه ٠٠ ليت قلبي يتوقّف الآن تماما فاموت واقع جثة هامدة هنا حتى يتعثر بجثّتي وهو خارج فيراني ! ويرى ماذا فعل بي ٠

ووقفت أمام اللوحة النحاسيّة التى تحمل اسمه أفـــكّر ، ولا أفكّر ·· وقلت لنفسي في جرأة الضعيف الذى يريد أن يمنح نفسه بعض الشجاعة :

ـ فلأدخل ·· ماذا سيحدث ؟ هل ستنطبق السماء عـــلى الارض ! ·· لن يحدث شيء · سوف يقابلني بفتور غاية ما في الأمر ، أو سوف يقابلني بحرارة أكثر ما في الامر ·· ولن يكون هناك فارق كبير عندي بين هذا وذاك ·· فلقـــد انتهى ضياء من حياتي ، وخرج من نطاق آمالي وأحلامي ··

لكنّي أريد أن أراه ·· أريد أن أنظر في عينيه ، ولـيكن ما يكون · فهو الوحيد الذى أحبّه ·· وهو الوحيد الـــذي يفهمنى ·· وتذكّرت كرامتي التى منعتني من لقائه طـــوال هاتين السنتين ··

ولكن اليوم ، بل هذه اللحظة ، لا أستطيع أن أراه ·· ولا أرى دخلا للكرامة في ذلك ·· فانا لا اريد أن أتزوّجه ، فهو رجل متزوّج ·· وانّ لم يكن متزوجاً فلست أفكر في الزواج منه ··

انا لا أريد منه ســـوى أن أراه ·· وأحادثه ·· ودفعت الباب برفق ، واخترقت الدهليز الطويل الذى يقود الى حجرته ·· ورأيت باب حجرته مغلقاً فانتابني اليأس ·· لكنّ الأمل دفعني الى أن أدفع بابه فانفتح ، وخفق قلبي بشـــدّة كانني مقدمة على عمل جلل ، وليست مجرد زيارة قصيرة لدقائق ·

ورأيته جالساً الى مكتبه فاشتدّت خفقات قلبي ، ورفـــع راسه من فوق الأوراق المتراكمة على مكتبه ·· ورآنى · وظل برهة قصيرة محدقاً فيّ وأنا واقفة على عتبة الباب لا أستطيع أن ادخل ، ولا أن أخرج كانمـــا شُلّت قدماي ·· ثم افاق لنفسه ، وسمعته يقول وهو يقف ويقبل نحوي باسماً :

ـ اهلاً شوقيه ·· اتفضّلي ··

وتحرّكت نحوه فى بطء وانا لا أدري تمـاماً بـكيانى ‥ واقتربنا من منتصف الحجرة ، ولم يكنْ يفصلنى عنه الا خطوة واحدة ‥ ورأيته يمدّ يده اليّ ‥ ورفعت يدي لأصافحه ‥ فأحسست بها ثقيلة كأنها نصف مشلولة واستقرّت يدي فى يده برهة قصيرة أحسست فيها بكل عواطفي القديمة تتّقد فجاة ‥ ولم أستطع ‥ وجــدتني من حيث لا أدري بـين ذراعيه وفي احضانه ، رأسي على صدره العريض ، وشفـتاه الدافئتان تلثمان كل جزء من وجهي وشعري ‥ ودمـوعي تبلّل وجهي ‥

وأفقت لنفسي بعد لحظة ‥ آه ‥ ما هذا الذى فعلت ‥ وسحبت نفسى منه شيئاً فشيئاً ، وابتعدت عنـه ، وجلست على كرسيّ رأيته أمامي وجلس هو الى جواري ‥ وقلت بعد فترة صمت في صوت ضعيف ممزّق :

ـ ضياء ‥ أنا آسفة لأنني أتيت اليـك اليوم ، لـكنّي تلقّيت صدمة ثانية من « رءوف » ‥ و ‥

وقاطعني قائلا :

ـ رءوف ؟ ‥ من هو رءوف ؟

ـ رجل ‥ مثل كل الرجال ‥‥ عرفته صدفة بعد أيام من قراءتي لخبر زواجك ، وكنت يائسة مغضبة مصدومة ‥ وكان رقيقاً مهذّباً لطيفاً ‥ ورحّبت بصداقته ‥ ثم حبّه . الحق أني لم أحبّه ياضياء ، لكنني كنت في حاجة الى أي أحد ، رجل أو امرأة ‥ ليسرّي عنّي ‥ ليحدّثني . ليملأ الفـراغ الذى خلّفه فراقك في حياتي ‥

وكان رءوف رقيقا حنونا ، وكنت في حاجة الى الرقّــة والحنان ‥ وأحبّنى ، أو هكذا قال ‥ ولم انفذ الى أعماقه ، لأعرف هــل هــو صادق أم كاذب ‥ ماذا كان يهمّني من أعماقه ؟ فليكن ما يكون ،كاذباً أو صادقاً،فانا لا اريد منـه

الا أن يظهر لي الحبّ ٠٠ أن يعاملني برفق ٠٠ أن يحنو عليّ ساعة لقائي به وكفى ٠٠ لا أريد أكثر من ذلك شيئا ٠

لقد علّمتني صدمتي فيك أن أقنع باليسير ٠٠ أن أكتفي بالظاهر ولا أنبش في الاعماق ٠٠ بل أهرب منها حتى لا تصدمني حقيقة أخرى ٠٠ وقلت لنفسي فلأحاول أن أعيش في سعادة كاذبة على أن أعيش في واقع صادق مؤلم ٠٠

ولكن لم أستطع يا ضياء ٠٠ لم أستطع أن أغيّر نفسي طويلا ٠٠ سرعان ما أفقت لنفسي ، أو أفاق هو لنفسه ٠٠ ولعلّه كان أيضاً هارباً مثلي من صدمة ، ويكتفي منّي بظاهري ولا يبحث عن أعماقي ٠٠ أو لعلّه كان يريد أن ينسى بي حبّاً قديماً كما كنت أفعل ٠٠ ومثل هذه الأشياء لا تدوم طويلا يا ضياء ٠٠

وكان ضياء يجلس الى جواري ٠٠ يستمع اليّ وفي عينيه ألم بليغ ٠٠ وأحسست بسعادة خفيّة حينما لمحت الألم في عينيه ٠٠ لم أدرِ لماذا ؟ لكنّي شعرت أنه كان يحسّ ، وأنا اتكلّم ، أنه المسئول عمّا حدث وأنه سبب شقائي ٠٠

ضياء يتألم !! ٠٠ ومن أجلي !؟

هذا هو ضياء كما عرفته ، وكما أحببته ٠٠ وهذه هي نظرة الألم في عينيه من أجلي لم تتغيّر ولم تتبدّل ٠٠ كأنه لم يصدمني أبداً ٠٠ كأنه لم يهجرني أبداً ٠ كأنه لم يتزوج امرأة غيري !

ولم أعاتبه ٠٠ بل لم أفكر في أن أعاتبه ، رغم أنني كنت أنوي ذلك في أول لقاء لي بعد زواجه ٠٠ لكنني نسيت أنه خان عهدي ، أحسست من نظرة الألم في عينيه أنه إنسان صادق، أنه لا يستطيع أن يخدع أحداً ، لا شكّ أنه أجبر على الزواج إجباراً ، ولعلّ وراء ذلك سبباً لا أعرفه ٠٠

وعاد اليّ حبّي القديم له دفعة واحدة ٠٠ ورآه في عيني ٠٠

فهو يفهم نظراتي . وقلت له :

ـ ضياء .. إنك رجل فاضل .. أفضل رجل عرفته . إنك إنسان نبيل ، أنبل انسان عرفته ..

كيف قلت له ذلك ؟ لم أدر ..

أفضل رجل ! أنبل رجل ! كيف ؟ .. هو الذي لفظني كالنواة ، وتزوّج امرأة غيري دون أن يطلعني على الخبر !

لم أعرف كيف قلت له ذلك .. لكني أحسست في عينيه الصدق ، والفضيلة ، والنبل ، وأحسست في لمسات يديه العاطفة الحقيقية التي لاتعرف الزيف أو الكذب ..

ومضى وقت الزيارة سريعا .. ولم أشعر الا وأنا اقف واقول له :

ـ طيّب يا ضياء ، اشكرك على حسن استقبالك لي ، وأرجو لك حياة سعيدة ..

ومددت له يدي لانصرف ، وظلّ ممسكاً بها بعض الوقت ، ثم قبّلها أصبعا أصبعا ، كما تعوّد أن يفعل طوال سني حبّنا .. وقال لي :

ـ شوقية .. هل ساراك مرة ثانية ؟

ـ طبعا ..

ـ متى ؟

ـ قريباً جداً ..

وهممت بأن اخطو نحو الباب ، لكنّي تذكرت شيئاً فجاة فقلت له :

ـ على فكرة .. ما رايك في الزواج بعد ان تزوّجت ؟ هل أنت راضٍ عنه ؟

ولم يردّ بسرعة .. ولم يبتسم كعادته .. اخذ يفكر برهة قبل أن يجيب ، وأحسست من تردّده أنه يحاول أن يغيّر شيئا مما كان يريد أن يقوله ، واشفقت عليه من أن يقول ما

يريد ٠٠ واشفقت على نفسى من سماع ما سيقوله ٠٠ فقلت له بسرعة :

ـ لا تفكّر كثيراً يا ضياء ، فانا لاأريد ان اسمع الردّ أياً كان ٠٠ سأحاول ان أراك مرة أخرى ٠٠

وخرجت مسرعة ٠٠ خرجت أعدو كانما ورائي شبح يطاردني ٠٠ وواصلت عدوي حتى وصلت الى بيتي ، وجريت الى حجرتي الهث واغلقتها على نفسي ٠٠ آه ٠ ماهذا الذى فعلت ؟

وتقلّبت في فراشي ٠٠ ثورة عارمة تجتـاح نفسي ٠ ليست ثورة على ضياء ، وليست ثورة على رءوف ، وليست ثورة على احد ٠٠ وانما ثورة على نفسي ٠٠ وسمعت كلـــمة تتردّد فى اعماقى ٠٠

كرامة !

كرامة ! ٠ تلك الكلمة التى ترنّ فجاة في أعماقي وتحاسبني بلا رحمة ولا شفقة ٠٠ ضياء ؟ ٠٠ مرة أخرى ضياء ؟ تذهبين اليه ! الرجل الذي خان عهدك ٠٠ الرجل الذي أحبّك خمس سنوات ، ثم تزوّج امرأة أخرى في يوم وليلة ؟ ثم تتهـاوين بين ذراعيه ، وتذرفين الدموع بين يديه ، وتقولين له أحبك ، وتتركين له شفتيك مرة أخرى ؟ ٠٠

ثم تعترفين له بما كان بينك وبين رءوف ؟

ما هذا الذى فعلت ؟

واحسست بضغط شديد في رأسي ، كانما يوشـــك أن ينفجر ٠٠ وتقلّبت في الفراش أبحث عن شيء من الراحـــة ووضعت الوسادة على رأسي ، وضغطت عليها بكل قوتي لأوقف هذا السيل المتدفّق من الافكار ٠٠ لكن رأسي ظلّ مشـــحونا مضغوطا ٠٠

وفجأة دقّ جرس التليفون ٠٠ فرفعت السمّاعة الى اذني فى إعياء ٠٠ وجاءني صوته نفسه ٠٠ ضياء ! الصوت الذى كان يحدّثنى كلّ يوم خمس سنوات متتالية ٠٠ كيف أنساه ! ٠٠

الصوت العميق الدافىء الحاني الذى كان متلهفاً دائماً ·· كيف أنساه ! · وقال بنفس صوته القديم :

ـ شوقية ·· أريد أن اقابلك الليلة ·· لقد خرجت مسرعة فلم أقل لك كل ما اريد ·· هل أستطيع أن اراك الليلة ؟

وسكت قليلا لأفكر ·· وكنت في حاجة الى شيء يريحنى من عذابي ·· ويخمد تلك الكلمة التى تتردد فى أعمـــاقي : كرامة ! ·· تلك الكلمة القوية الطاغية التى تسحقني سحقا ·· كرامة !

وأردت أن اخفف راسى من ثقله ، وقلبي من لوعته ، فقلت له وأنا أستعين بكل ما في نفسي من شجاعة وقوة :

ـ انى آسفة يا ضياء ، لا أستطيع أن اراك مرة أخرى ··

ووضعت السماعة في مكانها ، وعدت الى فراشي خفيــفة ، كأنما فقدت نصف وزني ·· ووضعت رأسي على الوسادة ·· رأس هادئ مستقر ·· وبحثت عن تلك الكلمة الجبـّـارة التى ترنّ فى أعماقي فلم أجدها ·· لا أدري أين اختبــأت مني ·· وابتسمت لنفسى فى زهو وانتصار وقلت :

ـ جبانة ! جبانة تلك الكلمة التى اسمها كرامة !

الطـــريق

ـ لا أريد أن تحبّني ٠٠ ارجوك ٠٠ أنا لست فاضلة كمـا تظنّ ٠٠

قالت هذه الكلمات ، وهي تجلس معه على شاطىء النيـل ، وتفصل بينهما مائدة صغيرة عليها زجاجة بيرة مثلّجة وكوبان فارغان ، وطبق مشهّيات « أورديفر » كبير ٠

ولم يرفع عينيه اليها ٠٠ مدّ يده الى زجاجة البيرة ، وملأ الكوبين ، ثم ناولها واحداً ، وأخذ لنفسه الأخير ٠٠ وقال وهو ينظر فى عينيها ٠٠ ويقرّب كوبه من كوبها « فى صحّتك ٠٠ وسعادتك » ٠٠ وصمت قليلا ثم قال :

ـ سعادتنا ٠٠

وقرّبت « ليلى » الكوب من شفتيها واخذت رشفة ٠٠ وسرت البيرة المثلجة فى جوفها الساخن فأنعشتها ، وبدّدت شيئاً من ذلك الوجوم الذى كان يملأ نفسها ٠٠ والتفتت ناحية النيل وهامت نظراتها الشاردة على صفحته السوداء الرقيقة ، وهى تمرّ بين صفّين طويلين متقطّعين من النور الأخضر الفاتح:صفّ فوقها ثابت واضح ، وصفّ تحتهـا يهتزّ ويتعرّج كلما هبّت نسـمة رقيقة ٠٠ وتمطّت ٠٠ وتنفّست ٠٠ وابتسمت ٠ ثم قالت :

ـ إنّنى أحبّ الليل ·
قال وهو ينظر فى عينيها :
ـ وأنا أحبّك أنت !
وضحكت ·· ومالت برأسها الى الوراء ·· وعاد يقول لها :
ـ أهكذا أصبح الحبّ عندك مهزلة ؟
وضحكت مرة ثانية ، حتى دمعت عيناها ، وكساهما بريق شديد جعلهما يشعّان فى الليل كفصّين من الماس ··
وشاركها الضحك ، وهو يقاوم فى نفسه رغبة ، لو أطاعها لقام من مكانه ، وذهب اليها ، حيث تجلس واخذ راسها الصغير بين يديه ، وقبّل كلّ جزء فى وجهها ·· حتى عينيها ·
وبعد فترة صمت طويلة قالت له وهى تثبت فصّيْها الماسيّين فى مكر :
ـ وماذا أصبح الحبّ عندك بعد حياتك العريضة المليئة بالتجارب ؟
وشردت نظراته بعيداً فى الليل ، وهو يداعب شفته السفلى بأسنانه ، وتعبث أصابعه الطويلة بشعر رأسه القصير ·· ثم قال بعد فترة وهو ينظر اليها نظرة عميقة جادّة نفذت الى أعماقها :
ـ أصبح كلّ شىء ··
ـ تعنى أننى كلّ شىء لك الآن ؟
ـ بكلّ تأكيد ··
ـ إذن فأنت تعرض علىّ الزواج ··
ـ بكلّ تأكيد ·
ـ هل أنت جادّ ؟
ـ كل الجدّ ··
ـ انت رجل جرىء جدّاً ··
ـ لماذا ؟ إنّ معظم الرجال يتزوّجون ··

ـ إنّ الرجل الغبيّ هو الذى يتزوّج •• والرجـــل الذكيّ يتزوّج فى لحظة غباء ••

وضحك •• وفرد جسمه الطويل فى استرخاء ، وأســـند راسه الى ظهر الكرسى . ثم قال بعد فترة صمت قصيرة ، وهو معلّق بصره الى السماء :

ـ ماذا كنت تقصدين بأنّك لست فاضلة ؟

ـ أنّني لست فاضلة ••

ـ ماذا تعنين ؟

ـ إنّنى لا أومن بالحبّ •• إنّ الحبّ هو الفضيلة الوحيـــدة فى هذه الحياة،ولكن الرجل والمرأة لا يلتقيان أبدا عند هــذه الفضيلة ••

ـ كيف ؟

ـ المرأة التى تؤمن بالحبّ تقابل رجـــلا لا يؤمن بالحبّ •• وحينما يؤمن الرجل بالحبّ يقابل امرأة لا تؤمن بالحبّ ••

ـ لماذا ؟

ـ لأن المرأة تبدأ الطريق وهى مؤمنة بالحبّ •• ثم تفقـــد هذه الفضيلة فى نهاية الطريق •• والرجل بالعكس ، يبـدأ بلا فضيلة •• ثم يجدها فى نهاية الطريق •

ـ وكيف يكون اللقاء بينهما إذن ؟

وتوقّفت أناملها عن دقّ المائدة •• وحوّلت عينيـــــها عن السماء الى الماء ، وظلّت تنظر فى البحر الغارق فى الظلام فترة ثم قالت :

ـ حينما تقابل امرأة فى أوّل الطريق رجلاً فى نهايةالطريق يصبح الاثنان واحداً ويتزوّجان •• وحينما تقـــابل امرأة فى نهاية الطريق رجلاً فى أوّل الطريق يبقى الاثنان اثنين ، وقد يتزوّجان •• وقد لا يتزوّجان •• وحينما تقابل امرأة فىأوّل الطريق رجلاً فى أوّل الطريق يصبح الاثنان ثلاثة ولايتزوّجان•

ـ وحينما تقابل امرأة فى نهاية الطـــريق رجلاً فى نهاية الطريق أيضاً ماذا يفعلان ؟

وسكتت لتفكّر ٠٠ وثبتت عينيها على كوب البيرة المثلجة ، وقد تكثّفت عليه قطرات صغيرة من الماء ٠٠ وأمسكت الكوب ، وأخذت رشفة ٠٠ ثم نظرت اليه ، وابتسمت ، ثم قالت :

ـ يشربان البيرة فقط ٠٠

وطافت نظراته على صفحة النيل الهادئة وقال وهو يمسك ذقنه بيده :

ـ وما طول هذا الطريق ؟

ـ ليس له طول ثابت ٠٠ قد يكون سنة واحدة ، وقد يكون عشرين سنة ٠٠ وقد يكون العمر كله !!

ونظر اليها فى مكر وقال :

ـ وكم كان طول طريقك ؟

ـ ستّ سنوات ٠٠ وأنت ؟

ـ لا أعرف ٠٠ إنّنى لست فاضلا بعد !

وضحكت فى مرح ٠٠ وشاركها الضحك ، ورفع كلّ منهما كوبه الى فمه ٠٠

ثم قالت ومازالت الابتسامة تضيء وجهها :

ـ إذن فقد سبقتك ٠٠

ـ إنّنى أحبّ المرأة التى تسبقنى ٠٠

ـ حتى ولو كانت غير فاضلة ٠٠

ـ إنّنى أحبّ المرأة التى تقول عن نفسها ، إنهـــا ليست فاضلة ٠٠

ـ ولكنى لا أقول فحسب ٠٠ إنّنى فعلا كذلك ٠

ـ هذه الصراحة تعجبنى ٠٠

ـ ولكنّها ليست صراحة ٠٠ إنّها الحقيقة المرّة ٠٠!

ـ ولماذا مرّة ! ٠٠ إنّنى أحسّ فى هذه اللحظة أنّك افضـــل نساء العالم !

ـ أوه ! •• عجيب هذا المخلوق الذى اسمه رجل ! • حينما تقول له المرأة إنّها فاضلة لا يصدّقها أيضا ••

ـ لأنّ المرأة تقول دائما عكس ما بها ••

ـ لكنّى لا أشارك النساء هذه الصفة •• أقسم لك إنّنى لست فاضلة •• أرجوك صدّقنى !

ـ لاأستطيع أن أصدّقك ••

ـ لماذا ؟

ـ إنّ امرأة مثلك لا يمكن إلاّ أن تكون فاضلة !

ـ بل لأن الحقيقة اذا صدرت من صاحبها لا يصدّقها الناس.

ووضع سيجارتين بين شفتيه •• واشعلهما وناولها احداهما •• واخذ كلّ منهما ينفث دخانه فى الهواء صامتا •• شاردا •• ثم مزّق السكون صوته العميق الهادىء :

ـ ماذا قلت ؟

ـ عن أىّ شىء ؟

ـ عن الزواج ••

ـ اىّ زواج ؟

ـ زواجنا ••

ـ ولماذا تريد أن تتزوّجنى •• ؟

ـ لأنّنى أحبّك ••

ـ وهل الحبّ عندك يعني الزواج ؟

واعتدل على كرسيّه وارتسمت على وجهه أمارات الجدّ الصارم وقال :

ـ لا •• لا •• لا •• الحبّ شىء ضخم جداً • والزواج شىء تافه جداً •• ولكن لا غنى للشىء الضخم عن الشىء التافه •• الحبّ بلا زواج يعيش •• يعيش بقوة •• ويموت بقوة •• شهادة وفاة واحدة تقضي عليه • ولكن الحبّ مع الزواج لا يموت •• شهادة ميلاد واحدة تضمن له الحياة أبدا ••

ـ تقصد الولد ..
ـ إنّه سر الحياة ..
ـ لم يعد سرّاً مادمت قد بحث به ..
وضحكا .. وقال وهو ينظر الى أسنانها :
ـ إنّنى أحبّ ضحكتك .. كانما أرى فيها الدنيا بشمسها وقمرها ، وهوائها ، ومائها ، ونهارها ، وليلها ، ودفئها وبردها .. إنّك تعبّرين عن الحياة تعبيراً صادقاً بهذه الضحكة الطبيعية السهلة .. إنّني احبّ الحياة حينما تضحكين .
ـ بدأت أظنّ أنك ستنظم شعراً فى يوم ما ..
ـ ربّما ..
ـ إذن فانت تغريني على عدم قبول الزواج ..
ـ لماذا ؟
ـ لأن الشاعر يقع فى حبّ كل النساء ما عدا زوجته ..
ـ الشاعر فقط ؟ ..
وضحكت .. ومالت براسها الى الوراء .. واخذ يدها من فوق المائدة وقرّبها من شفتيه ، وقبّلها ثم قال :

ـ هل وافقت ؟
ـ هل وافقت أنت ؟
ـ على أيّ شيء ؟
ـ على نقائصي !
ـ كل منّا له نقائصه ..
ـ ولكنّى لا أؤمن بالحبّ ..
ونظرت اليه وسحبت يدها من يده ثم قالت :
ـ ولكنّى قد أملّ الحياة معك .. فانا بطبعي سريعة الملل .
ـ لن تملّي معى الحياة أبدا ..
ـ إنّك مغرور جداً ..
ـ لست مغرورا .. ولكنّها الحقيقة التى لا يصدقها الناس

اذا صدرت من صاحبها ..

وضحكت .. ثم قالت وهى تثبت فصّيْصها الماسيّين فى عينيه :

ـ بل إنّها الكذبة التى اصدّقها .. أو التى اريد أن اصدّقها ..

وضحكا .. وأخذ يديها الصغيرتين فى يديه .. وقبّلهما ، وقال لها فى صوته العميق الدافىء :

ـ يازوجتى العزيزة ..

ونظرت اليه فى دهشة وقالت :

ـ بهذه السرعة ؟

قال وهو ينهض واقفا :

ـ ايّ سرعة ؟ ..

لقد ضيعنا وقتا طويلا في الطريق !!



الكوافير سوسو

كانت أصابعه الخشنة بعظامها العريضة البارزة وجـــلدها الاسمر الجافّ تبدو نشازا بين خصلات الشعر الذهبيّ الناعم ، تجمع بعضها وتفرّق بعضها ، تلفّ بعضها وتفكّ بعضها ‥ تنتقل في سهولة ويسر بحركات فنّية خفيفة رغم شـــكلها الغليظ الثقيل الذى يوحي للرائى أنها لم تخلق لتمسك مشطا أو دبّوساً وإنّما لتقبض على فأس أو ساطور ‥

والشعر الذهبيّ بينها طيّع مستكين ، ينهدل تارة وينتصب تارة ، يتفرّق ويتجمّع ‥ وينثنى وينفرد ‥ حتى يتّخذ فى النهاية شكلا أخيرا وكأنه أصبح شعرا غير الشعر ، فيه تموّجات جديدة بعضها يذهب الى اليسار وبعضها ينحرف الى اليمين ، فيه خصلة بيضاء ، وخصلة رمادية ، وخصلة كستنائيّة ٠

وتتقلّص الأصـــابع الغليظة متكوّرة محترسـة تسـوّيه من بعيد ، وتتحسّس الشعرات الرفيعة النافرة تضمّها الى أخواتها وتعيد بلمساتها الخفيفة نظرة واثنتين وثلاثا على الشكل الأخير

.. مرّة من بعيد .. ومرّة من قريب ، من اليمين ومن الشمال ومن الخلف ومن الأمام .. حتى تطمئنّ اطمئنانا كاملا فترتخي عضلاتها وتبعد مستريحة راضية هانئة ..

كانت هذه الأصابع الغليظة هي كلّ شيء في حياة سعيد او سوسو كما كتب على لافتة محله ، وكما تناديه الأصوات الرفيعة الناعمة ، يفكر بأصابعه ، وينظر بأصابعه ، ويشتم بأصابعه ، ويعيش بأصابعه ..

لكنّه اليوم بدأ يحسّ أن له راساً فوق عنقه تثقله افكار كثيرة ..

سوسو !! ..

أخذ الاسم يدقّ في راسه كمطرقة حادّة بينما راحت اصابعه السميكة تسبح في رشاقة بين خصلات الشعر الناعم ..

سوسو !! ..

وقلب شفتيه امتعاضا وهو يراجع اسمه بينه وبين نفسه .. ما الذي جعله يسمّي نفسه سوسو !

ونظر الى المرآة فرأى صدره يغطّيه شعر أسود .. كثيف .. وتأمّل قامته الطويلة العريضة ، وهبطت نظراته الى يديه فرأى أصابعه الغليظة وهي تنتقل بغير وعي بين خصلات الشعر .. غريبة .. كيف سمّى نفسه سوسو ؟! أو سمح لنفسه أن يسمّي هذه الجثّة الضخمة المغطّاة بالشعر سوسو ؟ .. لماذا لم يسمّ نفسه طرزان أو ضرغاما .. أو أيّ اسم من تلك الاسماء المذكّرة الخشنة التي تليق برجولته ، وتجبر الناس على احترامها ..

نظر الى المرآة ثانية يتفقّد نفسه ليكتشف أيّ شيء فيها يشبه سوسو ..

ولم يجد شيئاً إلاّ ذلك القميص المشجّر الذي يبدو شاذّاً على صدره العريض المشعر ..

واحسّ بالدماء تغلي فى رأسه،وودّ لو خلع هذا القميص أو مزّقه ، وشطب اسم سوسو من اللافتة ··

ـ أوه ! ·· حاسب شويه ياسوسو ·· المكوه لسعتنى !

صاحت صاحبة الشعر الأسود الداكن بعد أن مسّت المكوة فى يد سوسو الثائرة طرف أذنها ··

لسعة خفيفة ، أصابت جسمها بشيء من الانتشاء ، فعادت تتأوّه من جديد وهى تنظر الى سوسو نظرة نداء مكتوم صارخ وقالت فى ميوعة أنثويّة :

ـ أوه ! مش تحاسب عليّ يا سوسو ؟

ولم يردّ عليها سوسو ، لم يجد فى نفسه رغبة للردّ على هذا النداء المكتوم كما كان يفعل دائماً ويقول لها فى ميوعة مذكرة :

ـ بعد الشرّ عنك ·· انشالله يا مدام أنا اللى أتلسع ··

ويتعمّد أن يلسعها مرة اخرى لسعة خفيفة لتنتفض على كرسيّها وتنتشي أكثر واكثر وتتأوّه أكثر وأكثر ··

كان يعلم أنّ أنوثتها الصائحة فى المجتمع المحروم فى حاجة الى شيء من هذه الأشياء الصغيرة ·· لسعة خفيفة بالمكوة ·· قرصة فى الذراع ·· نظرة اشتهاء خفيفة · شدّة شعر مقصودة ··

هذه الأشياء الصغيرة المباحة فى المجتمع التى تنفّس بها النساء عن ضغط غرائزهنّ ·· أشياء صغيرة لا يطلق عنها المجتمع الإشاعات ويرضاها الأزواج كلّ الرضا مادامت الزوجة ستصفّف شعرها كما تفعل كلّ النساء ·· إنّ المجتمع لايرضى عن الشذوذ أياً كان ·· حتى ولو كان شذوذاً فاضلاً · ويرضى عن المعتاد حتى ولو كان خاطئا ··

ثم إنّ هذه الأشياء الصغيرة تحدث داخل صالون الكوافير سوسو ·· وسوسو هذا لا يثير غيرة الأزواج ·· يكفي أن

اسمه سوسو ·· وأنّه يلبس قميصاً مشجّراً · إنّهم لايعتبرونه رجلا ·

إنّ المجتمع ينظر الى الكوافير سوسو على أنّه امرأة لها شنب !

ووضع سوسو المكوة على النار وراح ينظر اليها وهي تلتهب وتحمرّ ·· وتذكّر حادثة اليوم التى قلبت يومه الى جحيم أشدّ ناراً من هذه النار التى يراها بعينيه ·· لقد قضى ست سنوات أو أكثر وهو يصفف شعور النساء دون أن يشعر بأي خزي أو عار ·· وظلّ اسمه سوسو معلّقاً على لافتة محلّه سنوات وسنوات ، والنساء ينادينه سوسو ·· ولا شيء فى ذلك يمسّ رجولته ·· وماذا كان يعنيه من تلك الكلمة الجوفاء الفارغة « رجولته » ما دام يكسب فى اليوم عشرين جنيها تقريبا ·· وله رصيد ضخم فى البنك يزيد عن رصيد أي بيه محترم ·· ثم إنه فى النهاية يعود الى زوجته ليثبت لها كل ليلة أنّه رجل ··

لكنّ حادثة اليوم هى التي اصابت رجولته فى الصميم ·· كان ذاهباً فى الصباح الى محله ليفتحه ويبدأ عمله اليوميّ حينما قابله فى الطريق رجل يعرفه وهو صاحب البقالة الجديدة الكائنة بجوار محله ، ووقف الرجل يتأمّل القميص المشجّر ثم قال فى ميوعة وهو يربت على كتفه كأنه يربت على كتف امرأة : ازيك يا سوسو ! ·· يا حنتوسو !

ولم يعرف لماذا غلا الدم فى عروقه فى تلك اللحظة ·· لقد ظلّت النساء ستّ سنوات كاملة ينادينه سوسو ويربّتن على كتفه لكنه لم يشعر فى أيّ لحظة أنّهنّ يعاملنه كامرأة ·وبالعكس كنّ يشعرنه برجولته دائماً ·· ولكنّ هذا الرجل الصفيق ·· يناديه سوسو ·· ويعامله كامرأة ·

وانتبه سوسو من حمية الصراع فى رأسه على ذراع ناعمة

بضّة تلتف حول عنقه وصوت ناعم يهمس فى أذنه :
ـ صـــباح الخير يا سوسو ٠٠ ادينى ميعاد عشان تعمللى شعرى ٠٠ أجيلك امتى ؟
ونظر اليها سوسو فى استغراب ٠٠ إنها تلصق جســـمها بجسمه بشكل يلفت النظر ٠٠ ولكنّ كل النساء داخل المحـلّ لا يلتفتن ٠٠ إن ذلك شيء عاديّ جدّاً عند الكوافير سوسو فى نظر المجتمع ٠٠ وشيء غير عادي جداً فى حجرة تضمّ رجـــلا وامرأة متحابّين ٠٠
وقال سوسو فى تأدّب : بعد ساعه يامدام ٠٠
ونظرت اليه شزرا وقرصته فى أذنه وقالت وهى تتأوّد :
ـ هىء ٠٠ مالك النهارده كده واخدها جد قـوى ٠٠ هىء ٠٠ هىء ٠٠
وانطلقت حناجر النساء تقول جماعة : ٠٠ هىء ٠٠ هىء ٠٠ مش عارفه سوسو ماله النهارده ؟ مبوز كده ليه ؟ شايل طاجن سته ٠٠ الواد جد خالص ٠٠ آل يعنى ٠ ما تتعدّل يا واد يا سوسو والا أجيلك وانت عارف أنا باعمل لك ايه ٠٠
ـ ايه ؟ بتعمليلو ايه يا روحيه ؟
ـ هىء هىء هىء ٠٠٠ هو عارف ده سرّ بيني وبينه ٠٠
ـ هىء ٠٠ لازم بتقرصيه ٠٠ أصله واد مضروب يموت فى القرص !
قرص ؟!
نفذت الكلمة من أذنه الى رأســـه كطلقة المسدس ٠٠ إنّ النساء تعوّدن أن يقرصنه من ذراعه ٠٠ من رقبته ٠٠ من أذنه ٠٠ كيف سمح لهنّ بذلك ؟ كيف ترك جسمه نهباً لأصابعهنّ النهمة الجائعة ؟
وأحسّ سوسو بمرارة فى حلقه تشـبه المرارة التي تحسّ بها المرأة التي تترك جسدها نهباً لجوع الرجال يعبثـــون به

كيف شاءوا وأنّى شاءوا ..

الى هنا لم يحتمل سوسو مزيداً من الأفكار والهواجس .. الى هنا بلغت أعماقه قمّة التوتّر ، فانفجر فى النساء كالضرغام:

ـ بس ! مش عاوز كلام ولا هأهاه .. انتـــم ايه ؟ جايين تعملوا شعركم والا جايين ..

ولم يكمل .. كان على وشك ان ينطق بكلمة نابية فامسك نفسه بصعوبة والعرق الغزير يتصبّب من رأسه ورقبته .. ونظرت اليه النساء فاغرات أفواههن .. مشدوهات . وساد بينهنّ الصمت لحظة .. ثم أفقن مفزوعات على شـكله الغريب الثائر ..

ـ هو جرى له ايه ؟

ـ يا نهار اسود باين عليه اتجنّن ..

ـ اتجنّن ؟

ـ اتجنّن ؟

واندفعت النساء مذعورات خارج المحلّ بشعورهن المنكوشة وكأنّ مارداً يطاردهن ..

وجلس سوسو فى المحلّ الخالي وراسه بين يديه .. ومن حين الى حين يرفع راسه وينظر الى شعر صـــدره العريض في المرآة ثم الى أصابع يديه الغليظة الخشنة ويهتف لنفسه بصوت مكتوم : أنا رجل .. أنا ضرغام .. أنا سبع !

وبعد أيّام قليلة كانت اللافتة المكتوب عليها «كوافير سوسو» قد اختفت ، وظهر مكانها لافتة أخرى خشنة كتب عليها :

« جزارة سعيد الضبع » ..



لن تجديه يا ليلى

الشخصيات :

اسامه محمود ، مهنـــــدس ناجح ، فى الخامسة والثلاثين من عمره ٠٠ ليلى زوجته ٠٠ مدرسة لغة عربية ، فى الثـــلاثين من عمرها ٠٠

المنظـــر :

صالة انيقة فى منزل المهندس أسامه محمود ، يجلس أسامة على أحد الكراسي الكبيرة ٠٠ يبدو عليه الشرود والتفكير العميق ، يمسك رأسه بين يديه ٠ تدخل زوجته ليلى ومعها حقيبة وقد ارتدت ملابس الخروج ٠٠ وحينما يسمع وقع قدميها ، يرفع راسه ويقول لها بصوت حزين :

أسامة ــ هل أنت جادّة فيما قلت ؟

ليلى ـ ألم نتّفق على كلّ شيء ٠٠ وكتبت لك تنازلاً عن كلّ شيء ٠٠

أسامة ـ ولكن بقي شيء لم نتّفق عليه بعد ٠٠

ليلى ـ ما هو ؟

أسامة ـ الجنين ٠٠

ليلى ـ « ساخرة » الجنين ! ٠٠ إنّه داخلي أنا بكلّ أسف ٠ وأنا حرّة فيه ، أبقيه أو لا أبقيه ٠٠

أسامة ـ « غاضبا » أنا أبوه ومن حقّي أن امنعك ٠٠

ليلى ـ « تنظر اليه ولا تردّ » ٠٠

أسامة ـ « مستعطفا » ليـــلى ٠٠ اسمعينى ٠٠ لا تكوني حمقاء ٠٠ إنك لا تحبّينني ولا تريدين الحياة معي ٠٠ هذا من شأنك ٠٠ ولكن هذا الطفل ابني أنا ٠

ليلى ـ ولكن ألا ترى أنّه من الأصلح لثلاثتنا ٠٠ أنا وأنت والطفل ، ألاّ يولد الطفل أبداً ؟٠٠ كيف تكون حياته حينمـــا يكبر ويعلم أنّ أمّه وأباه لا يعيشان معاً ؟٠٠

أسامة ـ ولماذا أمّه وأبوه لايعيشان معاً ؟

ليلى ـ لأنّ أباه لايفهم أمّه ٠٠

أسامة ـ ولكنّه يحبّها ٠٠

ليلى ـ إنّه يحبّ نفسه ٠٠

أسامة ـ الأنّني أريد أن أوفّر لك الراحة ٠٠ ماذا تاخذين من هذا الجري والتعب كل يوم ٠٠ عشرين جنيهاً كلّ شهر ؟ سأعطيك هذه العشرين جنيها فى يدك كل شـــهر ، ولا داعي أبداً لأن تكون زوجتي موظّفة حكوميّة تلهث وراء الاتوبيس كلّ صباح ٠٠

ليلى ـ إنّك لا تفهمنى ٠٠ أنا لا اعمل من اجـــل العشرين جنيها ٠٠ إنّنى أحبّ عملي ٠

أسامة ـ عملك ؟ إنّ عملك الأساسى في الحياة هو بيتك ٠٠

هو زوجك ‧‧ هو أنا ‧‧

ليلى ـ انت ؟

أسامة ـ نعم أنا ‧‧ ألا أكفيك؟!

ليلى ـ ولكنّك لا تحقّق ذاتى ‧‧ إنّك تحقّق ذاتك أنت ‧‧ وما أنا إلاّ وعاء يحمل أطفالك الذين تسمّيهم باسمك ، ويصنع أكلك الذى تهضمه وتحوّله الى فضلات ‧ إنّنى أعيش من أجل وجودك ‧‧ إنّ وجودي أنا لا وجود له"‧‧

أسامة ـ كيف ذلك ؟ أنت زوجتى ‧‧ حرم المهندس اسامة محمود ‧‧

ليلى ـ حرم المهندس اسامه محمود ! حتى اسمي تلغيـــه وتضع اسمك على غلافي ‧‧ يا لك من أنانيّ ‧‧ « ثائرة » لا ‧‧ لا أريد هذا ‧ لاأريد هذه الحياة ‧ لست فى حاجة اليها ‧ استطيع أن أعيش وحدي ، وأُنفق على نفسى ، صحيح أنّه لن يكون بيتاً كبيراً كهذا ، ولكنهُ سيكون بيتي أنا ‧‧ أضــع عليه اسمى : « ليلى صادق » ‧‧ سيكون بيتاً صغيراً بسيطاً ، ولكنّي ساحبّه ‧‧ لأنّه سيكون ملكي ، وساعيش فيه كما أريد ‧‧ ساكون حرّة ‧‧ لست تابعة لأحد ، سأحقّق ذاتي وأشعر بفرديّتى ‧‧ ويمكننى أن استاجر « خادمة » صغيرة تغســل ملابسى وتصـــنع طعامي ‧‧ وتقوم مقام الزوجة ـ كما يراها الرجال ـ وتتولّى هذه الأعمال التافهة الجامدة ، التى لا يمكن لأيّ إنسان ذكيّ أن يجعلها حياته ‧‧

أسامة ـ لقد افسدك التعليم والعمل لو لم تتعلّمي وتتوظّفي لما كان فى إمكانك أن تتركي هذا البيت ، ولعشت معي راضية قانعة ‧‧ لا يمكن أن تسير الحياة وقد أصبحت النساء رجالا ‧

ليلى ـ « ساخرة » النســـاء رجالا ؟‧‧ ومن قال إنّ المراة تصبح رجلاً اذا تعلّمت ، وعملت واصبحت إنساناً له كيـانه واسمه ؟ هل خُلقت المراة لتطبخ وتغسل ؟

أسامة ـ خُلقت لتكون أمّاً ٠٠ الرجل لا يمكنـــه أن يَلِدَ أو يرضع الاطفال ٠٠ إنّ الطبيعة خلقت للمرأة رحماً ليحمـــل داخله الجنين ٠٠ وخلقت لها ثديين ليرضع منهما ٠ لمـــاذا لا تحاكمين الطبيعة لأنها خلقتك امرأة ولم تخلقك رجلاً ؟

ليلى ـ إنني لا أريد أن أكون رجلا ٠٠ لقـــد خلقت امرأة ولا أشعر بأيّ نقص في طبيعتي ٠٠ إن الرجل هو الذى أدخل فى نفس المرأة أنّها أقلّ منه ، وأضعف منه ، وقال لها إنّ فى داخلك رحما ٠٠ والطبيعة أرادت هذا النقص فيك ٠٠ ولكن الطبيعة بريئة ٠٠ هذا الاختلاف لا يعني أن المرأة أضعف من الرجل ، وأقلّ منه ٠٠ وان له الحـــقّ فى أن يفرض عليهـــا سيطرته وحمايته ٠٠ الطبيعة تنطق بان المرأة إنسان كالرجل لها رأس مثل رأســـه ، ومخّ مثـل مخّه ، ويدان مثل يديه ، ورجلان مثل رجليه وكتفان مثل كتفيه ، وقلب مثل قلبه وكبد مثل كبده ٠٠ وإنّ الحمل والولادة وظيفة واحـــدة من وظائف كثيرة يقوم بها جسم المرأة ٠٠ لماذا تتّهم المرأة بالضعف حينما يخرج رحمها محتواه ولا تتهم الرجل بالضعف حينما تخـرج أمعاؤه محتوياتها مثلا ٠٠ إنّ الفلاّحة تلد طفلها فى العراء ٠٠ وتضعه على رأسها فى القفّة ، وتواصل عملها فى الحقل ، تماماً كما ينتحي زوجها وراء شجرة ليقضي حاجته ثم يعود الى مواصلة عمله ٠٠ لماذا إذن يستعبد الرجل المرأة ويلغي ذاتها لتصـبح تابعة له طول العمر؟٠٠

أسامة ـ إنّ منطقك عجيب ٠٠ لم أسمع فى حياتي امـرأة تتكلّم كما تتكلّمين ٠٠ إن المرأة ضعيفة ، حتى ولو لم تحمـل وتلد ٠ إنّها امرأة ٠٠ جسمها ضعيف ٠٠ وعواطفها متقلّبـــة تطغى على تفكيرها ، إغراؤها سهل ٠ إنّها فى حاجة الى رجـل يقودها ٠٠ الى رجل تتبعه ٠٠ ومن تتبع المرأة اذا لم تتبـــع رجلها ؟

ليلى ـ وهل لا بد للمرأة أن تكون تابعة لأحد ٠٠ ألا يمكن أن تكون مستقلّة ٠٠ إنّ منطقك يشبه منطق الإنجليز حينما احتلّوا مصر ٠٠ قالوا إنّها ضعيفة وتحتاج الى حماية ٠ ولكن حمايتها ضد من ، وهم الذين يعتدون عليها ؟ حمايتها ضدّ أنفسهم ٠٠ إنّ المرأة ليست ضعيفة كما تقول ٠٠ عواطفها لا تغلب تفكيرها ، وإغراؤها ليس سهلا ٠٠ إن المرأة تعرف كيف تحكم عواطفها ٠٠ وغرائزها طوال حياتها ٠٠ بعض النساء يعشن فى عذريّة دائمة ولا يتكلّمن ٠٠ وبعض النساء يطوين قلوبهن على مشاعر لا تجد طريقا الى النور ، والمرأة تقاوم الرجل دائما ٠٠ والرجل يلهث وراء المرأة دائما ٠٠ وتقول إن المرأة ضعيفة لأن اغراءها سهل ٠٠ ما بالك إذن بالرجل الذي فى غير حاجة الى إغراء على الاطلاق ٠٠ إن الرجل هو الذي فى حاجة الى حماية !

أسامة ـ ولكن القوانين كلّها تفرض حماية الرجل للمرأة ٠٠ فهو الذى يختارها ٠٠ وهو الذى يتزوّجها ٠٠ وهو الذى يطلّقها ٠٠ وهو الوصيّ عليها لا يمكن أن تخالفه ٠ هذه هى القوانين التى وضعتها الطبيعة ، وتسير عليها كلّ النساء ٠

ليلى ـ الطبيعة لم تضع قوانين ٠٠ الرجل هو الذى شرعها كما يهوى ٠٠ هو الذى شرع سيادته ٠٠

أسامة ـ ولكن المرأة تحبّ من الرجل أن يكون سيّدها ٠٠ إنّها تعشق وضعها عند قدميه ٠٠

ليلى ـ المرأة لا تعشق ذلك ٠٠ لقد ربّوها على أن الرجل هو السيّد ٠٠ ولقّنوها وهى طفلة أنها أقلّ من أخيها الولد ٠٠ وأنّ أمّها أقلّ من أبيها ٠٠ وقتلوا شخصيّتها ، وفرديّتها ، وأعدّوها لمتعة الرجال ٠٠ ماذا تنتظر من امرأة تتربّى هذه التربية غير ان تتزيّن وتتعطّر وتدلك ساقيها وتزحف الى قدمي الرجل؟ ٠٠

أسامة ـ إنّ المرأة الطبيعيّة هى التى تفعل ذلك ٠٠ ماقيمة المرأة فى الحياة اذا لم تجذب الرجل إليها ؟ وما قيمتها إذا لم تتزيّن وتتعطّر ٠٠ أم أنّك تريدين أن يتزيّن الرجل للمرأة ؟

ليلى ـ وهل من الضروريّ أن يتزيّن أحدهما؟٠٠ لماذا لايكون كلّ منهما على طبيعته ٠٠ لا أدري لماذا تضع المرأة على وجهها تلك المساحيق البيضاء ، والحمراء ، والخضراء ٠٠ إنّها تفسد ملامح الوجه ، وتخفي لون البشرة الطبيعيّ الذي يعكس النفس والروح ، إنّنى أرى وجوه النساء فى الشارع فيخيّل إليّ أنّه وجه واحد مكرّر ٠٠ كلهنّ متشابهات ٠٠ كأنهنّ يلبسن وجوها صناعية فى حفلة تنكّرية ٠٠ إنّني لا أنتمي الى هؤلاء النساء ٠٠ أنا لست منهنّ !

أسامة ـ بالطبع لست منهن ٠٠ فأنت لست امرأة ٠ ولكن اذا لم تكوني امرأة فماذا تكونين ٠٠ رجلاً ؟

ليلى ـ لست رجلاً ٠٠ ولست امرأة ، كتلك التى تسمّيها أنت امرأة ٠٠ إنّنى لا أعترف بتسميتك ٠٠ لأننى امرأة فى أعماقي ، ولكنّي من نوع لا تعرفه ٠٠ ولا تستطيع أن تعرفه ٠٠ إنه يبدو لك غريباً شاذّاً كأنّه جنس ثالث ٠

أسامة ـ امرأة ٠٠ إنّنى لم أر فى حياتى امرأة ولا رجلا مسترجلا مثلك ٠٠ وبالطبع الرجل هو الذى يحكم على أنوثة المرأة ٠٠

ليلى ـ « ساخرة » أعتقد أنّ أمامك خمسين سنة من القراءة والفهم حتى تتمكّن من أن تحكم على أنوثتي وتفهمها ٠٠

أسامة ـ ها ٠٠ ها ٠٠ من قال إنّ الأنوثة فى الكتب ٠٠ إنّها إحساس فطريّ يشعر به الرجل نحو المرأة ٠

ليلى ـ كلّ إحساس فطريّ يحتاج الى التهذيب ، والدراسة والتطوّر ٠٠ إنّ الرّجل الذى يعيش فى الغابة يفهم انوثةالمرأة فهماً يختلف عن الرّجل الذى يعيش فى نيويورك ٠٠ إنّه

الأنوثة منذ خمسين عاماً كانت تختلف تماماً عن الأنوثة هذه الأيام ٠٠ ثم دعني أسالك أولاً ٠٠ ماهي الأنوثة ؟

أسامة ــ الأنوثة ٠٠ هى الجمال ٠

ليلى ــ الجمال ؟ ٠٠ أيّ جمال ؟

اسامة ــ جمال المرأة ٠٠

ليلى ــ أيّ شيء في المرأة ؟

اسامة ــ جسمها ، ووجهها ٠٠

ليلى ــ جسمها ووجهها ؟ هل هذا هو الجمال ٠٠ إنّ جسم المراة ووجهها ليسا إلاّ جلدها الخارجيّ ، تستطيع أن تغيّره كالحرباء ، مرة خضراء على العشب ، وأخرى صفراء على الرمال ٠٠ إنّ الجمال في رأيك يوجد في علب أنيقة في الصيدليّات ، ومحلاّت الخردوات ويستورد لنا من ماكس فاكتور وكريستيان ديور ٠٠

اسامة ــ أين يوجد الجمال إذن ؟

ليلى ــ تحت الجلد ٠٠ في الدم ٠٠ الدم يجري في كلّ كيان المراة ويغذي قلبها ومخّها ٠٠ الدم يرسم روح الجسم ويحدّد تعبيره وأحاسيسه ، ومفاهيمه ، وملامحه ٠٠

أسامة ــ واذا كانت الملامح قبيحة ؟

ليلى ــ القبح ليس في الملامح ٠٠ القبح في الدم ٠٠ تصوّر امرأة عيناها واسعتان برّاقتان ولكن نظراتها تشعّ الكراهية أو الغيرة أو التكلّف أو البرود ٠٠ هل تقول إنّ عينيها جميلتان ؟ إنّ جمال العينين يكمن في جمال النظرة ٠٠ النظرة التى تعبّر عن المعنى الجميل ، كالحنان ، أو الحبّ ، أو الرقّة ، أو التسامح ٠٠ النظرة الدافئة الطبيعيّة التى تشعرك أنك أمام عينين نابضتين بالحياة يجري فيهما دم ينفعل ، ويتأثر ، ويعكس صور الحياة كلها ، وليستا عينين متشنجتين تروحان وتجيئان كقطعتيْ زجاج ٠٠

اسامة ــ الواقع أنّني لم ادرس علم النفس ، ولا علم الأرواح

.. إنّنى أحكم على الناس بمظهرهم .. ليس لـديّ وقت لأن اغوص فى الأعماق .. إنّى اضيع حياتى لو أنّني فعلت ذلك..

ليلى ــ بل إنّك تضيع حياتك ، لأنك لاتفعل ذلك ..

أسامة ــ اسمعى يا ليلى .. لقد ضقت ذرعا بهذه المناقشة إنّنى أُحبّك لكنك تعملين على القضاء على هذا الحب ..

ليلى ــ حبّ ؟ .. إنّك لم تحبّني قطّ .. لقد أحببتَ امـرأة غيرى تلبس جلدى ...

أسامة ــ أنا لا أفهم هذه الألغاز .. أنا رجل مهـندس .. لا افهم إلاّ فى الهندسة .. ولكنّي لا أمانع فى أن تكون هوايتك اعتناق هذه الألغاز .. على الا تتعدّى حدود النظـــريّات .. أتعرفين ؟ لا تتعدّى الكلام ؟ والآن .. ماذا تنوين عمله ؟ .. هل مازلت مصرّة على الطلاق ؟

ليلى ــ طلاق ؟ .. تلك الورقة التى يكتبها المأذون لنصبح غرباء ! .. ولكن الم تشعر أننا كنّا غرباء ونحن فى سرير واحد ؟

إسامة ــ « يشير الى بطنها » ولكنّ هذا الجنين يشهد على أنّنا لم نكن غرباء ..

ليلى ــ الجنين لا يشهد على شيء إلاّ على الزواج . إنّنى أحسّ أنه ليس طفلي .

أسامة ــ ليس طفلك ؟ .. ماذا تقولين ؟

ليلى ــ لست إلاّ وعاء يحمله ويغذيه .. إنّه قطعة غريبـة عنّي ..

أسامة ــ لقد فقدت عقلك بلا شـكّ .. أُنت فى حاجة الى طبيب ..

ليلى ــ « تمسك راسها بين يديها وتنتحب .» اسامة يقتـرب منها ببطء ويضع يده على كتفها .. ليلى تستمرّ فى النشيج »

أسامة ــ ليلى .. ليلى .. ما الذى أصابك هذا الصباح .

لم كل هذه الثرثرة ؟ لأنّني طلبت منك أن تتركي العمل ؟ ..
كفى .. كفى .. لا تبكي . اذهبي الى العمل ولا داعي لـــكل
هذه الثرثرة ..

ليلى ــ « ترفع رأسها وتنظر اليه فى دهشة » ولكنّني ..

اسامة ــ « ساخرا » : لا تحبّينني ! ولكنّنى أحبّك .

ليلى ــ كيف ؟

اسامة ــ إنّنى أحبّك ولا أطلب منك أن تحبّينى . ويكفينى أنّك لا تحبّين أحداً غيرى ..

ليلى ــ ولكنّي قد أحبّ أحداً غيرك ..

اسامة ــ لا أظن ..

ليلى ــ لماذا ؟

اسامة ــ لأنك لن تجديه .. لن تجديه يا ليلى ..

(يقترب منها ، ويأخذ الحقيبة من جوارها ، ويتجه الى داخل البيت .. تبقى ليلى وحدها في الصالة .. تضع رأسها بين يديها وتبكى)..

« يسدل الستار »



ليست عذراء

أقفل الحاجّ بدوي دكّانه بالقفل ، ونفض يده من التراب ثم أدخلها فى جيبه وأخرج قرن قرنفل وضعه تحت ضرسه الذى يؤلمه من ثلاثة أيام ، ولم يخرج ورقة النشوق كعادته ليشمّ ويعطس ، فقد كان مهموماً حزيناً ٠٠ نفسه مصدودة عن النشوق وعن كل شىء ٠٠

حتى أنّه حينما مرّ فى طريقه على قهوة بيومي التى يجلس عليها كلّ ليلة مع الحاج محمد ليشرب الجوزة ويدردش ، ويراقب الستّ حمدية وهى تجلس وراء الشيش الموارب ٠٠ وعلى رأسها المنديل الحرير الأحمر الذي يلتهم حاجبها الأيمن ويترك حاجبها الأيسر متدلّياً على عينيها العسلية المنكسرة ٠

لم يستطع الحاجّ بدوى أن يعرج على القهوة ولا حتّى أن يلتفت اليها ، بل مرّ من بعيد وهو يكبس عمامته على رأسه لتخفي جبهته ، إنّه لا يريد أن يراه أحد ٠٠ ولا أن يرى هو أحداً ٠٠ يكفيه ما سمعه من الناس ، الذين ليس لهم عمل منذ ثلاثة أيام إلاّ الحديث عن الحاجّ بدوي ٠٠ وشرف الحاج

بدوي ·· وسيرته على كلّ لسان منذ ليلة الفضيحة ·· ولولا تجارته وحاجته الى القروش التى يكسبها من بيع البهارات والقرنفل والجنزبيل ·· لولا ذلك لبقي فى بيته لا يبرحه أبداً ··

ووصل الحاج بدوي الى بيته وهو يلهث ، إنّه لم يتعوّد المشي السريع هكذا ، وأخرج المفتاح من جيبه وفتح الباب ، ودخل حجرة النوم ·· وأخذ يخلع ملابسه فى تثاقل ثم وثب على السرير ·· وحينما وضع راسه على الوسادة سمع شخير زوجته الخافت وهو يعلو على أنفاسها فالتفت اليها وهى غائبة كالموتى فى نوم عميق ، واخذ يتأمّل بشرتها ذات التجاعيد وشفتيها اليابستين ·· ومصمص شفتيه بازدراء ، وأعطاها ظهره وهو ينفخ ، وغطّى راسه باللّحاف لينام ·· لكنّ صورة سعديّة بملابس العرس ظهرت أمامه وهى تجلس فى وسط كوشة من البنات والازهار وعلى راسها تاج أبيض · والعريس ببذلته الكحلي يروح ويجيء بين الناس ·· والناس يبحلقون فى الناس ويشربون الشربات بالاربعة أكواب ·· والصوان الفخم مقام ·· وصوت الميكروفون يذيع الأغاني والزغاريد وإيقاع الرقص والصاجات ·· وحيّ السيدة زينب الذي يبيت كلّ ليلة بعد صلاة العشاء ساهراً فى نوافذه يطلّ على ذلك العرس النادر ويحكي قصّة العريس والعروس مئات المرات ·

وقلب الحاج بدوي فجأة وجهه ناحية زوجته ·· ولمعت عيناه الضيّقتان كعينيْ الصقر وهو يتأمّل عظام فكّيها البارزة المدبّبة ·· إنّه لا يذكر أن رأى لزوجته وجهاً غير هذا الوجه ·· ولكم دعا فى كل ليلة بعد زفافه على أم يوسف الخاطبة ·· ولعنها ولعن أجدادها وبصق عليها وعليهم ·· عشر سنين مضت وهو فى كلّ ليلة يصبّ اللعنات على راسها كلّما رأى وجه زوجته ··

وكانت سعديّة طفلة فى العاشرة تجري وتلعب ٠٠ وأحياناً تقفز فيرى ساقيها وفخذيها السمينتين ٠٠ ولم يدر لماذا كان يطيل النظر اليها ٠٠ وحينما كان يستدرجها الى « البلكونة » ويجلسها الى جواره ٠٠ ويمرّ بأصابعه على ساقيها يتحسّس بشرتها الناعمة كأنّه يقول لنفسه : عيب ياحاجّ بدوي ٠٠ ده انت خالها ٠٠ وبتربّيها بعد موت أبوها ٠٠ عيب يا راجل ٠٠ يالى حاجج بيت الله ٠٠

لكنّه كان لا يستطيع أن يقاوم هذه الرغبة الملحّة كلما رآها وهى تقفز ٠٠ فرق كبير بين ساقيها الناعمتين وبين ساقيّ زوجته الرفيعتين اليابستين ٠٠

وأحياناً حينما كان يفقد السيطرة على رغبته يضمّها الى صدره ٠٠ ويداعب بشاربه الكثيف وجهها الناعم النضر ولا يتركها إلاّ بعد أن تخنقها رائحة التبغ فى أنفاسه فتصرخ ٠٠ أو تعضّ أصبعه ٠٠

وفى مرة ٠٠ لم يكن بالبيت سواها ٠٠ وكان مستلقياً على السرير يعربد بأنفاسه مع الجوزة ويراقب سعديّة وهى تلعب كعادتها، وأحسّ برغبة جارفة ، وشعر كأنّ دمه يغلي فى عروقه ٠٠ ولم يستطع المقاومة ٠٠ وقام اليها وحملها ٠٠ ووضعها على السرير ٠٠ وأحسّ الحاج بدوي بالعرق يتصبّب من جسمه فأزاح عن نفسه اللحاف ، وتذكّر منظره وهو يلبث ثيابه ويضع عمامته على راسه وينزل مهرولاً الى السوق ٠٠ ثم يعود اليها فيجدها كفّت عن البكاء ٠٠ وحينما يعطيها الحلوى الكثيرة تبتسم فى سذاجة وتنسى كل شيء ٠٠ وأحس بالراحة ٠٠ إنّها لم تفهم شيئا ، لن تقول لأمّها ٠٠

وجفّ عرق الحاج بدوي فأحسّ بالبرد ، وسحب اللحاف ليغطى انفسه، ، فتعرّت زوجته وظهرت ساقاها الرفيعتان فنظر اليها بضيق ٠٠ إنّه يكره زوجته من أول ليلة ٠٠ ولقد كرهها أكثر بعد حادثة سعدية ٠٠ وأحس بالندم ٠٠

واصبح يفرّ من البيت الى القهوة ليشرب الجوزة ويدردش مع الحاجّ محمد فى الوقت الذى يبحلق فيه الى « سيقان » النسوة وهن يجتزن الشارع أمامه ٠

وانتشلته من ضياعه الستّ حمديّة ٠ تلك الأرملة السمينة التى تسكن فى مواجهة القهوة ، وكان يراها وهو يجلس على القهوة تنظر بعين واحـــدة من فرجة الشـــباك ويرى يديهـــا البيضاوين السمينتين وهى تمسك بضلفة الشيش ، وساعدته الستّ حمديّة فى التعرّف عليها ٠٠ وفى زيارتها ٠٠ وفى كل شيء ٠٠ واستعاض بها عن زوجته « الكركوبة » ونسى بهـــا سعديّة ٠٠

لم يعد يثيره منظر ساقيها وفخذيها وهى تقـــفز ٠٠ حتى بعد ما كبرت واستدارت وبرز صدرها بشدّة لم يشعر نحوها بأيّ شيء ، لولا تلك الحادثة المؤلمة التى وقعت منـــه ٠٠ والتى كانت تطفو على ذاكرته كلما فكّر فى زواجها ٠٠ ولقد اختـــار لها حسين أفندى عريساً لأنّه رجل طيّب ٠٠ كان المرحوم أبوه رجلاً غبيّاً ولا يمكن لحسين أفندى أن يرث الذكاء عن أمه ٠٠ لأنه فشل فى تجارة الطعميّة بعد أبيه ٠٠ ونظره ضعيف ٠٠ ولم يصلح إلاّ فى وظيفته الحقيرة التى توسّط له فيها أحـــد أقاربه ٠٠

وانتفض الحاج بدوي في فراشه ، وعاد الى ذاكرته صـــوت حسين أفندى ذلك الرجل الغبيّ الطيّب كما كان يظنّ ، وهـــو « يجعر » بأعلى صوته ويسبّ الشرف ويبصق على العرض ٠٠ ويصرّ على ان يطلّق « بالثلاثة » قبل ظهور الشمس وأن يستردّ مهره وكل هداياه ٠٠ وأن يتنازلوا عن المؤخر وعن النفقة وأن ينهوا الموضوع فى السرّ وإلاّ جعلهم مثلة الحى ٠٠

وأحسّ الحاج بدوي بنار تتقد في بدنه فقذف اللحاف عن

جسده ورماه على جثّة زوجته وقام يتمشّى فى الحجرة ..

لقد أصبحت رقبته فى « قصر » السمسمة . وهو لايستطيع أن يرفع رأسه فى الحيّ .. ولا أن يجلس على القهوة ، ولاحتى أن يرى الستّ حمديّة ، إنّه الآن فى نظر الناس كلّهم رجل بلا شرف حتى يغسل شرفه ، والرجل عندهم لا يغسل شرفه الا بالدم ..

وصعد الدم الى وجهه ، إنّ سعدية تنام الآن فى حجرتها ولا يفصله عنها سوى باب غير مقفول ..

وتصوّر نفسه مرة أخرى الحاج بدوي الذى يمشي رافعاً رأسه ، ويجلس على القهوة .. مع الحاجّ محمد يشدّ أنفاسه مع الجوزة .. ويدردش . وكلّ رجل يمرّ عليه يقرئه السلام .. والستّ حمديّة .. آه .. مرّة أخرى يذهب اليها وتاخذه بين أحضانها الدافئة .. ثلاثة أيام مضت وهو محروم من كلّ هذا ..

ووضع الكوفيّة على رقبته وأدخل « المطوة » فى جيبه ، ثم مشى على أطراف أصابعه ودفع باب سعديّة ببطء ..

وفى الظلام الدامس اخذ يتحسّس بيديه حتى وصل سريرها .. كان كل جسمه يرتعد وأنفاسه تتلاحق بسرعة وكاد يفرّ من الحجرة بسرعة لولا أنه تخيّل سرير الستّ حمديّة وهى راقدة عليه تفتح ذراعيها لأحضانه ، وألهبه الحماس فاخرج « المطوة » من جيبه ومدّ يده على السرير يتحسّس رقبة سعدية ولكنّ يده لم تصل الى شيء .. فاستعان بيده الأخرى .. ولم يعثر فى الظلام عليها .. ففتح النور ونظر على السرير ليجده خالياً . ونظر تحت السرير .. وفى الدولاب ووراء الشمّاعة .. لكن سعديّة لم تكن هناك .

وعاد الى حجرته والعرق يتساقط من كل جسمه ، وزحف على السرير بجوار زوجته .. لقد هربت سعديّة قبل أن يقتلها

.. قبل أن يثبت للحيّ أنه رجل يغسل شرفه بالدم .. كان يجب أن يقتلها أوّل ليلة .. سيقولون إنّه جبان . لن يستطيع الجلوس على القهوة .. لن يرفع راســه بين النــاس . لن يستمتع بأحضان الستّ حمديّة الساخنة .. وجحظت عينــاه فى غيظ وحيرة .. وكانت « المطوة » لا تزال فى يده ورأى زوجته راقدة كأنّها ميتة ..

ولم يدر لماذا أخذ يبحلق في رقبتها الرفيعــة المعروقة وهي تصعد وتهبط مع شخيرها .. واهتزّت «المطوة» في يده وخيّل اليه أنه رفع يده بها وأسقطها على رقبتها .. وانفجرت دماؤها فى وجهه .. واختلطت بعرقه .. لكنّه كان لا يفعل شيئا .. وترك « المطوة » فى يده وأعطاها ظهره .. وحينــما أغمض عينيه وراح فى غيبوبته ظهرت له صورة سعديّة .. طفــلة صغيرة فى العاشرة تمسك صرّة ملابسها وتسير فى الشــوارع ليس لها مأوى .. وفتح عينيه .. وأحس بشيء ساخن سخونة الدم يسيل على وجهه .. وسمع صــوت نشيجه هو يعلو .. ويعلو .. على صوت أنفاسه .



هيتروفس .. هيتروفس

كان ذلك منذ عشر سنوات أو أكثر قليلا ، وكان مدرّج على باشا ابراهيم غاصّاً بالطلبة على سعته الكبيرة ، فهو أكبر مدرّج بكلّية الطبّ ، لكنه أصبح يضيق عاماً بعد عام بذلك العدد المتزايد من طلبة الطبّ •• فكلّ طالب بالثانوي يريد كلّية الطب •• ويحلم بكلّية الطب •• ويرى نفسه فى منامه وقد أصبح من هؤلاء السعداء الذين ينتمون الى كلّية الطب ، ويراهم كلّ يوم وهم يركبون الاتوبيس من محطّة القصر العيني ، وعلى أيديهم معاطف بيضاء متّسخة تفوح منها رائحة غريبة نفّاذة لا بد أنها رائحة الجثث التى يشرّحونها ، ويضحكون في كبرياء ، ويتكلّمون بصوت عالٍ ، ويتبادلون كلمات بالانجليزية ترنّ فى قوّة وخيلاء •• لا شكّ أنّها أسماء الأمراض التى يكتشفون سرّها الدفين أو أسماء ما يشرحون من جسم الإنسان ويقفون على كلّ ما ينطوي عليه ذلك المخلوق العجيب •• وينادي كلّ منهم الآخر قائلا : « دكتر » •• ويتساءل طالب الثانوى بينه وبين نفسه إن كان « دكتر » تصغيرا أم

تكبيراً للقب « دكتور » .. على أيّ حال فإنّ للكلمة وقعاً جميلا في نفسه ، يحسّ فيها شيئاً من الامتياز عن النـــاس ويرى الإعجاب بها فى عيون ركّاب الاتوبيس .. ويبيت يحـلم أنه حصل على الثانوية ، ودخل كلية الطب ، وركب الأتوبيس ، وفاحت رائحة نفّاذة من معطفه ، ونطق بكلمات إنجليزيةساحرة .. وزميل يناديه يا « دكتر » .. ونظرات كلّها إعجاب تتّجه اليه ..

وهكذا كانت الأحلام تتكاثر ، وتتكاثر معها وفود الطلبة الى كلية الطبّ ، حتى بلغت الدفعة الواحدة فى أيّامي الخمسمـائة أو تزيد ، لا يعرف الطالب زميـــله ولا يمكن أن يعرفه ، ولا يعرف الأستاذ الطالب ولا يمكن أن يعرفه .. ويقضي الطالب ستّ سنوات ونصفاً فى الكلّيّة على أقل تقدير ، ثم يخرج منها ولا يكاد يعرفه أحـــد اللّهم الا بعض الفرّاشـين الذين كان يرشوهم ليسرقوا له ذراعا أو رجلا أو جمجمة ، هذا اذا كان طالب طبّ مثالياً فى نظر حرس الكلّية على الاقل . أما اذا كان طالب طب فاشلاً أصابه الملل من الجري بالمشرط وراء الشرايين والأوردة والشعيرات الرقيقة فاتخذ لنفسه هواية أخرى غـير التشريح .. وهى الخطابة .. ولم يجد موضوعاً يمـــارس به هوايته الا السياسة .. سياسة البلد . ونظام البـــلد .. والاستعمار والانجليز .. و .. و .. فاذا ما انتهت مشاكل البلد أو خيّل له ذلك تحوّل الى سياسة البـــلاد الأخرى .. فلسطين الشهيدة .. و .. و .. ويضرب بقبضة يده عـــلى منضدة الأستاذ ويخطب بصوت جهوريّ تهتزّ له جدران مدرّج على باشا ابراهيم الشاهقة ، أما الطلبة فلا يكاد يسمعه احدهم ويعدّونه شرّاً لا بدّ منه كلّ صباح .. أما حرس الكلية فهـم يولون موهبته الخطابيّة اهميّة أكثر .. ويدوّنون اســـمه فى سجلاّتهم ، ويحفظون ملامحه فى صورة شمسيّة ، ويتعقّبـون

خطاه داخل الكلّية ٠٠ فى المعامل ٠٠ والمدرّجات ودورات المياه ٠٠ ولا شكّ أن هذا العمل مفيد الى حدّ ما ٠ فهو يخفّف فراغهم الموحش بعض التخفيف ويرضي غرور الطالب الفاشل بعض الرضا ٠٠

وفى ذلك اليوم كان المدرّج بمقاعده وأرضه ونوافذه مختفياً تحت أجساد الطلبة المتلاحقة ٠٠ وزفيرهم السّاخن يرفع حرارة الجوّ فنصبح فى الصيف ونحن فى الشتاء ، وكنت البس معطفاً سميكاً كاللّحاف لم أجد بدّاً من أن أخلعه واضعه فى حجري ، وهو المكان الوحيد الذى بقي خالياً فى المدرّج ٠

وكان الصخب يملأ المدرّج والأصوات العالية الغليظة الجشاء تهزّ طبلة أذني الرقيقة فتكاد تمزّقها ٠٠ ولم أكن أدري مصادر كلّ هذه الأصوات المتباينة المتنافرة ، لكنّي كنت أرى المدرّج وقد امتلأ بأفواه متلاصقة تتّسع وتضيق ، وتضيق وتتّسع ، في سرعة عجيبة تسبق العين ٠٠ وهناك على مرمى البصر وقف مكان الأستاذ طالب أعرفه ٠٠ والحقّ أننى لا أعرفه شخصيّاً لكنّي أستطيع أن أتعرّف على أنفه من وسط آلاف الأنوف ٠٠ فهو خطيب الدفعة ٠٠ وكل دفعة لها خطيب على الأقلّ ٠ وكان لدفعتنا خطيب واحد ٠٠ ولهذا فقد كانت فرقة حسنة السمعة ٠٠ يتنبّأ لها حرس الكلية بالنّجاح المطرد ٠٠ هذا اذا لم يزد عدد الخطباء أثناء الدراسة الطويلة الشاقّة ٠٠ وكثيراً ما كان يزداد ٠٠

وكان الخطيب واقفاً كالضرغام ، يهدر ويزبد ، وكلماته الناريّة تندفع فى أذنى كطلقات الرصاص ، لا تلبث أن تستقرّ في رأسي وتفرقع : « أيّها الشباب ٠٠ أيّها الابطال ! ٠٠ هذا هو يومكم ٠٠ الوطن يناديكم فلبّوا النداء ! أيّها الشباب ٠٠ ليس مكانكم هنا فى المدرّجات ٠٠ وليس عملكم التشريح والمرورات ٠٠ ولكن مكانكم هناك ٠٠ فى ساحة القتال ٠ فى

أرض القنال ! .. هيّا أيها الشباب ! دعوا المشارط والمحاضرات .. ودعوا الكتب والمذكرات .. هيا انطلقوا ! الى الميدان .. الى الميدان .. الى الميدان ! الى الكفاح الى الكفاح ! .. الحرية أو الموت .. الاستقلال او الهلاك ! .. ايها ال ... »

وظهر الأستاذ فى فتحة الباب ، واختفي الخطيب ، وانقطع الهدير .. وتوقّف الصخب .. وثبتت الأفواه المتحركة .. وساد السكون فى المدرّج . ووقف الأستاذ بقامته القصيرة النحيلة ينظر من خلال نظارته السميكة الى الطلبة فى تحفّز .. كأنه يتوقّع هجوماً من أحد .. أو كأنّه يسلّح جسمة بنظرات قويّة قد تخيف تلك العيون الشاخصة اليه من كل شبر في المدرّج .. وظلّ الأستاذ دقيقة أو دقيقتين متسلّحا وراء نظارته الغليظة ، والصمت التامّ يشمل المدرّج .. والطلبة يجلسون متأهّبين مترقّبين ، أقلامهم فى أيديهم ، ومذكّراتهم مفتوحة ، وأنفاسهم مكتومة ، وآذانهم مرهفة تنتظر أوّل درة تسقط من بين شفتى الأستاذ الخطير ..

وأخيراً انفرجت الشفتان .. لا عن درّة إنما عن قنبلة .. « هيتروفس .. هيتروفس » .. وتشنّجت نظرات الطلبة يحملقون في الأستاذ .. وساد الصمت ثانياً . ثم انطلق الصوت الرفيع الحادّ مرة أخرى كطلقة المدفع : « هيتروفس . هيتروفس » وتصلّبت رءوس الطلبة وهى مشدودة نحوالاستاذ بلا وعي وكأنه القى فى وجوههم بتعويذة من التعاويذ أوطلسم من الطلاسم .. وارتخت عضلات الأستاذ المتحفزة .. لقد ملك زمام الطلبة وسيطر عليهم . ونظر اليهم فى كبرياء وزهو وراح يتمشّى من اليمين الى اليسار .. ومن اليسار الى اليمين واضعاً يده فى جيبه .. ثم استدار فى عظمة وامسك باطراف أصابعه قطعة من الطباشير كأنّه يمسك صرصارا أو خنفساء ، وكتب على السبورة بالانجليزية : هيتروفس .. هيتروفس .

ثم استدار الى الطلبة ونفض يده من الطباشير ووضعها فى جيبه وأخرج ورقة مطوية فضّها وبدأ يقرأ ‥ وانكفأت رءوس الطلبة يدوّنون محاضرة اليوم فى علم الطفيليّات ‥

وانقضت دقائق قليلة اتّخذ فيها صوت الأستاذ نغمة واحدة رتيبة جعلت رأسى يدور،وشعرت برغبة فى النعاس ‥ لكنّى أفقت فجأة ‥ شيء ما قطع تلك النغمة الرتيبة المنظّمة ‥ وارتفعت رءوس الطلبة وتلفّتت هنا وهناك لتعرف مصدر الصوت النشاز ‥

ورأيته هو بأنفه ‥ خطيب الدفعة ‥ واقفاً منتصباً بين الرءوس ‥ وسمعته يقول : « هل لي أن أسأل سؤالاً ؟ ‥ وتوقّف الأستاذ وصوّب نحوه نظرة حادّة كالخنجر لم أفهم منها هل ساءه أن يقطع عليه سلسلة الإملاء ، أو خشي أن يسأله سؤالا لا يعرف جوابه ‥ وسمعت الأستاذ يقول له فى صوت رفيع حادّ : « الاسئلة آخر المحاضرة ‥ ليست الآن » ! فردّ الطالب الخطيب بحماس لا يفارقه أبداً : «ولكنّي لا أستطيع ان أتابع المحاضرة ‥ إنّه سؤال خاصّ بالعنوان » ‥

وارتسمت على وجوه الطلبة نظرات الاهتمام والاستطلاع والتعجّب ‥ وقال الأستاذ : « أيّ عنوان ؟ » ‥ فقال الطالب « عنوان المحاضرة » ‥ والتفت الاستاذ الى السبورة ثم الى الطالب وقال فى آلية : « هيتروفس ‥ هيتروفس » وسكت الطالب وبلع ريقه ثم قال : « هل الأسماء قليلة الى ذلك الحدّ ؟ ‥ ألم تكن هيتروفس واحدة كافية ليسمّى بها الطفيل ويكون الاسم الثانى شيئا آخر بدلا من التكرار ‥ أم انها قلة فى الاسماء ؟

ودوت خمسمائة ضحكة أو أكثر اهتزّ لها المدرّج وارتعدت جدرانه ‥ وابتسم الاستاذ ابتسامة ساخرة عليها مسحة من العلم الممزوج بالفلسفة وأخذ يتمشّى واضعاً يديه وراء ظهره

ومطرقا رأسه كأنما يفكّر فى الردّ ٠٠ ثم توقّف ونظــر الى الطالب وقال فى سخرية : ليست قلّة فى الأسماء ، ولكنها عادة عند بعض الطفيليات أن يسمّى الابن بنفس اسم أبيه ٠٠

وضحك الطلبة ٠٠ وارتسمت على وجه الأستاذ فجأةامارات الصرامة وتلاشت ابتسامته وعاد يتسلّح ضدّ موجة الضــحك والهرج بنظراته القويّة الحادّة ٠٠ وقال للطالب فى شــدّة : اجلس ولا تسأل هذه الأسئلة السخيفة مرّةً أخرى ٠٠ ثم نظر الى ساعته وقال غاضبا : لقد أضعت من المحاضرة عشر دقائق ٠٠ إنّك طالب مشاغب ٠٠ ما اسمك ؟

وسكت الطالب وطأطأ رأسه وقال بصوت خفيض : حسين حسين شاكر ٠٠

وضجّ الطلبة بالضحك ٠٠ وقصف المدرّج برعد القهقهــة العالية ٠٠ ونظرت الى الأستاذ ٠٠ كان يضحك هو الآخر ٠٠ وفرحت ٠ فقد كانت المرّة الأولى التى رأيته فيها يضحك منذ دخلت الكلية ٠٠ اما خطيب الدفعة فقد خلع عليه الطلبة اسما جديدا هو : هيتروفس ٠٠ هيتروفس شاكر ٠٠ وظلّ هــذا الاسم العجيب يطارده حتى تخرّج فى الكلية بعد خمسة عشر عاما وأصبح طبيباً ناجحاً ٠٠

الشيء الصعب

كان صوته العميق الهادئ ينساب فى الليل ، ويصل الى أذني دائماً هادئاً يريح أعصابى المرهقة من العمل طول اليوم ، ويجعلنى أمدّد ساقيّ على السور الحديدى فى استرخاء يشبه النوم ، وأترك نظراتى المطمئنّة تهيم فى صفحة النيل الساكنة .. هدوء .. هدوء عجيب يخلّفه صوته ، ونظراته ، وحركاته فى كل مكان يوجـــد فيه .. وأنا أحبّ كل شيء هادئ فى الرجل .. ليس دائما ..

وأرهفت أذنى الى الصوت العميق أُستمع .. كان يحدّثنى عن نفسه ،عن طفولته ، وحياته ، وشبابه . عن أمّه وأبيه ، وأخيه .. عن تجاربه مع النساء .. عن عمله . .عن ماضيه ، وحاضره ومستقبله .

كان يتكلّم ، وكنت أستمع ، وأنا أنظر فى عينيه ال ... العسليّتين .. لا .. البنيّتين ؟ لا ليستا بنّيتين . ما لونهما ؟ لا أدري .. ليستا سوداوين ولا زرقاوين ، ولا خضراوين .. ولكنْ لهما مع ذلك لون أراه ، وأحسّه ، وأفهمه .. لون غريب عميق .. كأنّه طبقات كثيفة كثيرة ، متراكمة بعضــها فـــوق بعض ، ليس لها قرار ، وليس لها سطح .. شيئان كرويّان يطلاّن على عالم معلوم ، وغير معلوم ، وينفذان الى عالم مجهول وغير مجهول ..

وسمعته يقول :

ـ ولكن لماذا أحكي لك كلّ هذا عن نفسى ..

ونظرت الى طبقات عينيه وابتسمت .. فقال :

ـ لا أدري .. ولكنّى أشعر أنني أريد أن أحكي لك كل شيء عنّي .. حتّى تلك الأشياء التى كنت أخجل منها بيني وبين نفسى أريد أن أحكيها لك ..

وأسند رأسه الى ظهر الكرسي فى راحة واسترخاء ونظر بعينيه العميقتين فى السماء .. وظلّ تائهاً فى ذلك السواد الداكن فترة كأنما يبحث فيه عن شيء ، ثم التفت اليّ .. ونظر فى عينيّ نظرة طويلة ، أحسست بها تمشي فى كل كيانى ، وتصيبنى برجفة غريبة كأنّ شحنة جديدة من الأحاسيس اجتاحت نفسي وجسمي ..

ورأيته يقترب منّي .. وامتدّت أصابعه تبحث عن يدي . وأمسكها بكلتا يديه .. واستكانت يدي بين كفّيه الكبيرتين الدافئتين كما يستكين العصفور الوليد فى صدر أمه ..

لكنّها لم تكن سوى لحظة ، لحظة استكانة قصيرة غافلت فيها عاطفتي عقلي ، وتسرّبت مني تريد أن تمارس حقّها في أن تعيش .. وأن تستكين .. وأن تهدأ .. وأن تضع رأسها على صدر عريض حنون .

لم تكن سوى لحظة تنبّه بعدها عقلي ، وشدّ عاطفتى من لجامها فأخضعها .. وجذبت يدي من كفّيه الدافئتين الكبيرتين فشعرت بالبرد .. كأنني تعرّيت فى برودة الليل .. كأنني فقدت مأوى فى يوم مطير .

وانتفضت .. انتابنى شعور بالخوف ، ذلك الخوف الذى يشعر به المرء حينما تتولّد فى نفسه حاجة جديدة الى شيء ضروري قد لا يستطيع الحصول عليه ، أو قد يضيع منه لو أنه حصل عليه ..

وقادني الشعور بالخوف الى رغبة فى التمرّد ·· ذلك التمرّد الذى يحسّ به العاجز ليضفي على نفسه قوّة من عنده ··
وجدتنى من حيث لا أدرى أغضب ·· وقلت له فى ثورة :
ـ ماذا تريد مني ؟
قال فى حنان :
ـ أحبّك ·· أحبّك ·· أحبّك ·
قلت فى ثورة :
ـ هل نسيت أنك رجل متزوّج ؟ إننى لا أقبل هـذا الحبّ لاننى أعرف نهايته ··
قال فى هدوء :
ـ وما نهايته ؟
ـ ستاتي بعد فترة وتقول لى ·· لن أستطيع التخـلّي عن زوجتى ··
ـ لن اقول ذلك ··
ـ ولن اقبل منك أن تتخلّ عن زوجتك ··
وسكت قليلا ·· ثم قال :
ـ وما الذى يرضيك الآن ؟
ـ الاّ نتقابل ··
ـ أبداً؟··
ـ أبداً ··
ـ هل هذا هو الحلّ ؟
ـ ليس امامنا سواه ··
ـ إننى اوافق على شرط ··
ـ ما هو ؟
ـ ان تقابلينى حينما تريدين ان تغيّري هذا القرار ··
وافترقنا ·· ومضى يوم ·· واثنان ·· وثلاثة ·

وفى نهاية اليوم الثالث جاءني صوته العميق الصادق يقول :

ـ أريد أن أراك ..

ـ متى ؟

ـ الآن ..

وجلست الى جواره أستمع الى صوته العميق الهادئ ، وأشعر براحة تسري فى اعصابى المرهقة ، فامدّد ساقي على السور الحديدى فى استرخاء يشبه النوم ، واترك نظراتى المطمئنّة فى صفحة النيل .. قال :

ـ لن يكون بعد ذلك قرارات ..

وضحكت .. فقال :

ـ أتضحكين .. ماذا فعلت فى الأيام الثلاثة ؟

ـ وماذا فعلت أنت ؟

قال وهو شارد وعيناه فى السماء :

ـ تعذّبت ..

وشعرت فى هذه اللحظة أننى أريد ان أقترب منه .. وأمسك راسه بين يدي وأسنده على صدري لأمنع عنه العذاب ..

ونظر فى عيني .. وكأنه قرأ رغبتى فقال فى صوت غضوب :

ـ لماذا تحبّين الرجل الضعيف ؟

ـ لأننى أشعر أنه يحتاج إليّ ..

ـ إننى أحتاج إليك ..

وانتابنى مرة أخرى الشعور بالتمرّد فقلت له فى ثورة :

ـ أنت لست فى حاجة إليّ .. ستعود بعد قليل الى زوجتك ..

وسكت فترة طويلة ، وعيناه تفتّشان فى ظلمة الليل عن

الإجابة .. ثم قال :
ـ أنت لا تعرفين .. أنّ الطاقة التى يشحنها الحبّ لايفرغها الا الحبّ ..
وأعجبنى كلامه .. لكنّي رددت قائلة :
ـ هل طاقة الحبّ تفرغ ؟
ـ لا .. إنّ الحب يشحنها من جديد ..
وسكتّ قليلا لأفكر .. وأحسست به يقترب منّي ويقول :
ـ خبّرينى ماذا تريدين ؟
فقلت فى ذعر وأنا أراه يقترب منى أكثر وأكثر :
ـ لا شيء ..
قال فى شدّة :
ـ مامعنى لا شيء هذه ؟ أنا لست مستعدّاً لأن أضحّي بحبّي لك .. سأكافح من أجله .. لن أضيع فرصة حياتى ، سأتخلّى عن كلّ شيء الا أنت .. هل تتزوّجيننى ؟

وسرت رجفة فى كيانى ولم أشعر إلاّ وأنا أضع يدي على فمه وأقول :
ـ لاتقل ذلك ؟ لا أستطيع ؟ .. هل نسيت زوجتك ؟
ـ إنّنى أشعر أنّنى أرتبط بك أنت ولا أرتبط بها .. إنّنى لاأستطيع أن أتخلّى عنك .. لم يكن زواجى إلاّ وظيفة ألقيت على عاتقي ..
ـ لا .. لا تقل هذا . سأعود الى القرارات مرة أخرى ..
قال فى حزم :
ـ أنت لا تملكين إصدار هذه القرارات وحدك .. إنّك لم تعودي وحدك .. لقد ارتبطنا .. أيّ قرار إن كان هناك قرارات يجب أن نصدره معاً .. ونوافق عليه معاً ..
واقتربت يداه منّى تبحثان عن يديّ .. وعثر عليهما . واستكانت يدي بين كفّيه الكبيرتين الدافئتين كما يستكين

العصفور الوليد فى صدر أمه .

ومرة أخرى لم تكن سوى لحظة .. لحظة استكانة قصيرة غافلت فيها عاطفتي عقلي وتسرّبت منّي تريد أن تمارس حقّها فى أن تعيش ..

لحظة قصيرة لمعت كالبرق ثم أدبرت سريعاً .. وتنبّه عقلي وانتزع قلبي من بين كفّيه الحانيتين الدافئتين ..

ونظر اليّ فنظرت بعيداً عنه فى صفحة النيل .. وسمعته يقول فى مرارة وألم :

ـ إنّك لم تحبّيني !

وافترقنا بلا قرار على ألاّ نعود .. ومضى يوم .. واثنان . وثلاثة ، وأربعة ..

وبتّ الليل مؤرّقة أفكر .. وبدا لى السرير خشنا كأنّه مصنوع من الحجر ، وبدت لى الوسادة يابسة كأنها مليئة بالمسامير .. وبدا لى الليل طويلا ممتدّا ، كأنه لن ينتهى .. وعيناي الحمزاوان المسهّدتان تجوبان فى ظلمة الليل تبحثان عن أشياء أحسّها ولا افهمها ، وأفهمها ولا أصدّقها ، وأصدّقها فأعود لا أفهمها ..

لماذا قلت له لا ؟ .. لماذا تخلّيت عن حياتي ؟

وتقلّب كياني المرهق ينشد مكانا على السرير أقل خشونة ، وتحرّك رأسى الثقيل على الوسادة يتلمّس بقعة خالية من المسامير .. سأطلبه فى الصباح وأسحب هذه اللا ..

وسبقني .. كان يسبقني ببضع دقائق . وجاءنى صوته الحبيب يسألنى عن صحّتي .. وقلت له :

ـ ماذا فعلت فى تلك الأيام الأربعة ؟

قال لي :

ـ وماذا فعلت أنت ؟

قلت له :

ـ تعذّبت ··
وسكت قليلا ·· فقلت له :
ـأريد أن أراك ··
ـ متى ؟
قلت :
ـ الآن ··
وانساب صوته العميق الهادئ في أذني يريح اعصابى ، ويجعلنى أمدّد ساقي على السور الحديدي فى استرخاء يشبه النوم ، واترك نظراتى المطمئنّة تهيم فى صفحة النيل ··
وسالنى وهو يبتسم :
ـ لم تقولي كيف تعذّبت ؟
ونظرت فى طبقات عينيه الكثيفة الكثيرة ثم قلت له :
ـلماذا تحبّ المرأة الضعيفة ؟
قال :
ـ أنا لا أحبّ المرأة الضعيفة أبدا ·· ولكنى أحبّ المرأة القويّة حينما تضعف ··
وأحسست فعلا أنّني أضعف ·· وأنني لا استطيع أن اقاوم كفّيه الكبيرتين الدافئتين ، ورأسي الثقيل المتعب وهو يميل ليستريح على صدره العريض ··
لحظة استسلام بعد أيام من الصراع ·· لحظة انتصار العاطفة على العقل بلا خجل ·· بلا عقد ·· بلا صراع ·· أروع لحظة فى الحياة ·
ومضت اللحظة ولم أعرف مداها ·· خلت أنها عمر جديد يضاف الى عمري ·· عمر جديد كامل له ماضٍ ، وله حاضر ، وله مستقبل ·
ومضت اللحظة رغم روعتها ·· ورغم عمرها ·· مضت كما يمضى كل شيء رائع فى الحياة وانتهت كما ينتهي أي عمر مهما بلغ مداه ··

وفتحت عينى ، واستردت يدي ورفعت رأسى ، وأمسكت حقيبتى ، ووقفت ..

قال :

ـ ماذا حدث ؟

قلت :

ـ كل شيء ينتهى ..

ـ ولماذا تهربين ؟

ـ إنه شيء صعب ..

ـ ما هو ذلك الشيء الصعب ؟

ـ إن كلّ شيء ينتهى ..

وسمعته يضحك فى مرارة وسخرية ويقول :

ـ انتهيت من مشكلة زوجتي فخلقت مشكلة أصعب .. لماذا تعاملين نفسك بهذه القسوة ؟ لماذا تتركين عقلك وعاطفتك يتصارعان ؟

ونظرت فى أسى الى صفحة النيل فاقترب مني ، وأمسك يدي فى شدّة وقسوة وقال :

ـ لن تكسبي شيئاً من هذه المعركة لأن ميدانها الوحيد هو نفسك ، نصف ذاتك يصارع النصف الآخر .. والنتيجة بالنسبة لك شيء واحد .. هو أنك تخسرين نصفا دائما ..

ونظرت فى أعماق عينيه أفتّش عن شيء من هذا الصراع عنده وقلت له :

ـ وأنت ؟ ألست مثلي ؟

قال فى ثقة غريبة :

ـ لا .. إن ذاتي لا تتصارع .. إن عقلي هو قلبي . وقلبي هو عقلي ..

واحسست أنّه أكثر منى .. واقوى منى .. أكثر طبيعية .. وأكثر بشرية . أكثر انسانية .. ووددت في تلك اللحظة

أن ألقي نفسي بين ذراعيه القويين وأقول له :
ـ علّمني .. علّمني !
وكأنما أحس رغبتي فنظر اليّ وكأنه يحتويني بكل كيـانه وقال باسما :
ـ ساعلّمك ولنبدأ من هذه اللحظة ..
واعتدل في كرسيّه ، وقال كأنه أستاذ يخاطب تلميذته :
ـ والآن وقبل كل شيء يجب أن تعترفي .. هل تحبّينني ؟
وكان جادّاً .. وكان راضياً .. وكان قوياً .. وكان محبّاً
ونظرت في أغوار عينيه العميقتين فاحسست أنّه .. أنّه رجلي الوحيد وقلت له :
ـ نعم أحبك ...
ورأيته يبتسم ابتسامة عريضة ثم يضحك في انطلاق غريب وسمعته يقول وهو ينظر في عينيّ بحنان كبير :
ـ هل كان شيئاً صعباً ؟
قلت وانا انظر بعيداً عن عينيه حتى لا يكتشف كذبي :
ـ أبدا ؟ لم يكن شيئاً صعباً ..



مجرّد صورة

صعدت هند سلّم القطار وقفزت داخل الديوان لتلحق بالمقعد المجاور للنافذة، تماماً كما كانت تفعل وهى طفلة ، لم تغيّرها عشرة أعوام طويلة كبرت فيها واستدارت ونضجت ونالت الليسانس وتزوّجت ٠٠ لكنّها هي هند التى يسعدها أيّ شيء ، وأقل شيء ، مثل السفر وركوب القطار والجلوس بجوار النافذة ٠٠

وجلس الى جوارها زوجها حسين بعد ان شبّ على قدميه ، ووضع الحقيبة فوق الرفّ ، ونفض يديه بتانّ ٠٠ إنّه هادئ الأعصاب كما يبدو من ملامحه الهادئة فيما يشبه الابتسامة ، وحركاته البطيئة كأنّه لا يتعجّل شيئا ٠٠ واثق أن كلّ شيء يأتي فى أوانه ٠٠

وتحرّك القطار وهند تطلّ من النافذة وتراقب بيوت القاهرة وهى تتراجع الى الوراء ، والقطار متّجه ناحية الشمال الى الاسكندرية ٠٠

وجفّت الابتسامة على شفتيها وانتشر على ملامحها وجوم سريع ٠٠ هذه أوّل مرة تسافر الى الاسكندرية بعد زواجها ٠٠ وكانت آخر مرة في صيف العام الماضي بعد أن نالت الليسانس بدرجة « جيّد جداً » ، وعيّنت فى وظيفة ممتازة بعد النجاح بشهر واحد ، وقبضت أوّل مرتّب ستة عشر جنيها ، وأخذت

أجازة مرضية وسافرت الى الاسكندرية ·· وهنـــاك وسط الأمواج الباردة كانت تقذف جسمها الساخن وتنطلق بذراعيها وساقيها . تسبح كأنّها طائر يعوم فى الهواء ثم تخرج من الماء، وتنثر شعرها الناعم ليقذف بالماء عنه ، وتمدّد جسمها المبلل تحت الشمسية . وتضـــع رأسها على الرمل الدافئ وعيناها نحو السماء تتقلّبان وتفتّشان فى الزرقة العميقة الداكنة عن أشياء ·· أشياء كثيرة تفكّر فيها أوّلها سعادتها ·· سعادتها هي ·· لقد حبست نفسها عشرة أعوام فى المدرسة والجامعة والبيت لتذاكر وتنجح وتنال الليسانس وقد تحقّق لها ذلك ·· ماذا بقي إذن ؟ لا شيء ســـوى أن تعيش ، أن تطلق من نفسها ما كانت تكبّله ·· ولم تكن تكبّل سوى مشاعرها ·· أحاسيسها كامرأة ·· رغباتها ، استطلاعها ، شقاوتها ، وكانت شقيّة بطبيعتها ·· متحفّزة متحمّسة ·· مليئة بالحياة متعصّبة لهـــا ··

وقضت ثلاثين يوماً فى الاسكندرية تساوى ثلاثين عاما من عمرها الذى فات ، عرفت أنواعاً كثـيرة من الرجال ، الشابّ الذى يدلي خصلة من شعره على جبهته ويلبس المايوه الضيّق ويتبختر أمام الكبائن يطرقع باللبان فى فمه ، والسلسلة فى يده ·· والرجـل المتفلسف الذى يلبس الشـورت ويجلس وقوراً أمام الكابين ويمسك كتابا بالمقلوب ·· والرجل الهائم على وجهه يزوغ بصره هنا وهناك وتخرج من بين شفتيه من حين الى حين تقليعة أو تعليق ·· رجال فى كل مكان يكثرون ويتكاثرون فى الصيف كأنهم ذباب ·· وهى لم تعرف الرجال وان كانت قرأت عنهم فى الكتب ·· لكنّها فى هـــذه الأيام القليلة تريد أن تراهم عن كثب ·· أن تسمع كلامهم ، أن تقرأ أفكارهم ، أن تلمس عضلاتهم وشواربهم ·· ولم تكن تريد واحداً بالذات ·· كان فى خيالها رجل ·· فتى أحلامها ··

لكنّها لم تكن تبحث عنه أو أنّها أجّلت البحث عنه حتى ترى وتتفرج وتتمعّن في الفرجة ٠٠ وأصبح كلّ يوم من هذه الأيام الثلاثين مليئاً بالمواعيـد مشحوناً بالشخصيّات المتناقضة ٠٠ في الصباح تسابق في الماء شاباً مائعاً يخيّل اليهـا أنه فتـاة قصّت شعـرها ٠٠ وتحت الشمسيّة على الرمال تجلس مع رجـل يأكل الكلام كأنه من جوعه للحم الآدمي يلتهم لسـانه وينظر اليها كخرتيت طلع توّاً من الماء ٠٠ وفي المساء تجلس في الكازينو المطلّ على البحر مع رجـل أشيب يخلط الأدب بالفلسفة والحب بالموت كأنّه يضرب الرمل ويخطّ بالودع ٠ ولم تكن تريد إلاّ أن تتفرّج على الرجال ، أن تعرفهم،أن تدرسهم ٠ ووقف القطار فافاقت من خيالها ٠

ونزلا من القطار،وهند تتأمّل محطّة سيدي جابر بوجوم،لقد انتهى صيف العام الماضي ، وانتهت معه كلّ مغامراتها ولم يبق في نفسها شيء بالمرّة سوى مفاهيم دخليت رأسها عن الحيـاة والناس ٠٠ وبعد الثلاثين يوماً عادت الى القاهرة لتلتقي صدفة بفتى أحلامها حسين وتتزوّجه ٠

ونظرت الى زوجها ورأت ملامحه الهادئة الباسمة ، وأحسّت أنها تثق فيه كما تثق دائما ، لكنها لم تكن تدري ما سرّ ذلك الوجوم بداخلها ٠٠

إنّها لا تخاف شيئاً،وضميرها لا يؤنّبها على شيء ٠٠ كانت كلّها مغامرات بريئة ٠٠ مجـرّد تجارب نفسـيّة لا تحرّك إلاّ تفكيرها وتأمّلاتها ٠٠ لم يمسّ قلبها أو وجدانها إنسان ولم يهز أنوثتها رجل ٠٠ كانت كالعالم العجوز الذي يشرّح في معمله مجمـوعة من الضفادع والفيران ٠٠ وعلى أيّ حال،فقد انتهى الصيف ، ومات في الماضي كما يموت أيّ شيء ولا يبقى له أثر ٠٠ وعادت اليها طمأنينتها حينما تذكّرت مسالة الموت هذه ٠٠ كانت تستخدم ذكرى الموت دائما لحلّ مشاكلها لأنها

تشحنها بموجة استخفاف بالحيـــاة ، وما فيها من مشـاكل واهتمامات وعقد ٠٠ وتقـــول لنفسها مادام الانســان حتماً « ميتاً » فكلّ ما في حيـــاته هيّن تافه ٠٠ وبهذا استخدمت ذكرى موت جدّها فى التخفيف من وطأة حزنها على تأخّرها في التوجيهية ، واستخدمت ذكرى موت أمّهـــا فى التخفيف من حزنها على موت أبيها وهكذا ٠

ولكنّ هذه الحالة لا تلبث لحظات كأنّها ومضات روحيّة قويّة لا تلبث أن تنطفئ ، وتتركها « إنســـــانة » عاديّة فى مهبّ الحياة ، تحزنها أشياء صغيرة مثل فقدان نصف ريال ويسعدها أيضا أشياء تافهة مثل السفر وركوب القطار والجلوس بجوار النافذة ٠٠

وقضيا أياماً سعيدة فى الإسكندرية ٠٠ الصباح كلّه للبلاج والبحر ، والمساء كلّه للسهر والفسح والرقص ٠

حتّى كان صباح ، وهنـــد وحدها تحت الشمسية ، تمدّد جسمها المبلّل بالماء على الرمل الدافئ وعيناها ناحية السماء لا تتقلّبان ولا تفتّشان عن شيء ٠٠ إنها ســـعيدة فى حياتها ولا تطلب مزيدا من شيء ٠٠ وفجأة وقف أمامها مارد طويل حجب عنها الســـماء والبحر ونهضت برأسها وهى تصيح فى دهشة : « مين ؟ »

وردّ عليها صوته الغليظ : « مين ! ٠٠ ايه نستينى ؟ »

وابتسمت فى عدم اهتمام قائلة : « تقريباً ٠ »

واحمرّ وجهه من لهجتها ونظر اليها من قدمها الى راســـها كأنّه يفحصها بلا إعجاب ثم قال : « تقريبـــاً يعنى ايه ؟ »

وغاظتها نظرته الجريئة الوقحة ولهجته الشديدة الآمرة .كان هو كذلك دائما ٠٠ جريئاً وقحاً معتدّاً بنفسه مغروراً ٠٠ لكنّها لم تضق به كما ضاقت هذه المرة ٠٠كانت فى العام الماضي لايهمّها شيء ســـوى أن تتفرّج ٠٠ وكانت تقبل النـــاس على علاّتهم

وباخطائهم وعيوبهم لأنهم كانوا لا يهمّونها في شيء ٠٠ لكنّها اليـــوم ، وبعد أن احبّت وتزوّجت ، يهمّها زوجهـــا وتهمّها سعادتها وهى لا تسمح لأيّ رجل أن يكلّمها بلهجة شـــديدة آمرة، إلاّ زوجها فى أوقات غضبه فقط ويعتذر بعدها ٠٠ ولكن هذا الرجل من يكون ؟٠٠ ذلك الشابّ المستهتر الذي قابلته فى الصيف الماضى ، والذي لا مبدأ ولا عمل له ٠٠ الذى يظهر على البلاج فى موســـم الصيف كما يظهر التين الشوكى في شهر يوليو والبلح فى سبتمبر ٠٠ مجرّد كائن حيّ يمشي على رجليه ويكسو صدره شعر أسود ويلبس فى أصبعه الصغير خاتماً من الماس ، وأبوه كان باشا أيّام الباشوات ٠٠

واحمرّ وجهها من الغيظ وهى تراه يثني جســمه الطويل ويجلس فى برود بجانبها على الرمل ، وانتفضت واقفـــة على ركبتيها وهى تقول بشدّة : « تسمح تقوم من هنا ! » وأصابه برود أشدّ لثورتها فأجاب بهدوء وعناد : « مش قايم ! » ٠

ولم يشعر إلاّ ويدها ترتفع وتهوي على وجهه فى لطمة قوية وهي تأمره بلهجة حادّة كالكرباج : « اتفضل قوم بسرعة ! »٠٠

واحمرّ نصف وجهه الذي أصابته اللّطمة واصفرّ النصف الآخر ، ونظر اليها نظرة ارتعدت لها مفاصلها ٠٠ نظرة فيها دهشة وشرّ وحقد ٠٠ نظرة رجل مصاب فى كرامته الى أبعد حدود الإصابة ٠٠ وفرد جسمه الطويل ، وقام فى تثاقل ، ومشى خطوتين ثم استدار اليها،وقال فى صوت متغيّر غريب : « لازم أدفعك تمن الصفعة دى ! » ٠

ودقّ قلبها بعنف ٠٠ لماذا يقول هـــذا وماذا يملك حتى يستطيع ان يفعل ضدها شيئا ويغرمها ثمنا ايّ ثمن؟٠٠ وغاب لون الدم من وجهها وارتعشت أصابعها فى الرمل ، وأحسّت بيد قوية تمسك قلبها ، لقد تذكّرت الصورة ، الصورة التى التقطت لها وهى جالســـة بالمايوه وبجوارها ذلك الشـــابّ

يوشوشها في أذنها .. كانت أيّامها تحيا في فكرة معيّنة عن الحياة تريد أن تعيش فيها فترة وقد انتزعت نفسها من بين البشر لتتفرّج عليهم ، وهي ليسـت منهم،فماذا يضرّها من صورة أو آلاف الصـور .. مجرّد ورقة عليها رسومات !.. لكنّها الآن تحسّ شيئا آخر ..

صحيح أنها ورقة ولكنّها تسجّل جزءا من حياتها .. تسجّل موقفاً لها مع رجـل يستطيع من يراها أن يحكى عنهما الف قصّة وقصّة..وشعرت بالخوف فتذكّرت الموت وقالت لنفسها: الناس تموت كل يوم .. واليوم الذي يفوت لا يعود مرة أخرى أي أنه يموت .. ولكنّ هذا غير صحيح .. الماضي قد لا يموت، قد تسجّله أشـياء تافهة مثل ورقة أو صورة فيبعث حيّاً من جديد .. ورقة حقيرة صغيرة يذيبها قليل من ماء البحر،لكنّها تقف أمامها كأنها ثلاثون يوما كاملة بكل دقائقها وثوانيها وكل حوادثها وشخصياتها ومفارقاتها .. هذه الورقة في جيب هذا الرجل المغرور .. إنّها سلاح يمكنـه أن يستعمله ضدّها .. والرجل الحقير لا يلهب حقارته مثل إهانة امرأة له ..

وقضت هند صباحاً سيئاً .. تفكّر في الصورة وتتصوّر الرجل وهو يعطي زوجها الصورة ويحكي له قصّة حب خرافية وأي قصّة حبّ يمكن أن تركب علىصورة رجل وامرأة يتهامسان .. وفجأة ، أحسّت هند بيد على كتفها فانتفضت .. كان هو زوجها وقد عاد ومعه السندوتشات وزجاجة بيرة .. ووضع الأشياء وهو يقول لها باسماً :

« انت نمت واللا ايه ؟ » ..

وابتسمت في إعياء وهي تردّ مازحة كعادتها : « ايه » .. وضحك زوجها وهو ينظر في عينيها : « دمك خفيف .. عمرك ما تنسى النكتة دى أبدا .. »

ونظرت اليـه هند بعناية كأنها تراه لأوّل مرّة وتفحصه

وتفتّش فى عينيه ويديه عن مدى حبّه لها وثقته فيها ·· ورأت عينيه الباســمتين ويديه الهادئتين الواثقتين فهدأت ·· إنّه حسين ·· زوجها الذى أحبّته ، والذي يملأ حياتها ، ويستولى على قلبها ، وتحسّ بكل الرجال الى جانبه كأنّهم نســاء ·· وأعادت النظر الى عينيه ويديه ·· إنّه رجلها وحبيبها، ولكن ماذا يكون من أمره اذا رأى الصورة ؟·· وأحسّت بالقبضــة تمسك قلبها ·· وسمعته يقول باسماً :

« يا للا يا هند قرّبى،أنا متّ من الجوع ! » ··

وأعاد لها صوته العميق الحنون ثقتها فيه ·· إنّه لن يخذلها ·· هذا الرجل لا يمكن أن يفصلها عنه آلاف الناس تتراصّ بينه وبينها،فما بالها بقطعة من الورق الصـغير مطبوع عليها رسومات · أيّ رسومات ··

وعاد اليها وهدوؤها كاملاً فأكلت ، وشربت البيرة،واستلقت بجوار زوجها على الرمل وطال بينهما الحديث كما يطول دائما··

وفى صباح اليــوم التالي كانت قد نسيت تماماً الرجل والصورة لولا أنّها لمحت زوجها،مقبلاً عليها من بعيد ممسكاً بيد رجل طويل ما أن تبيّنته حتّى عادت القبضة الى قلبها تعتصره بشــدّة ·· ونهضت من رقدتها على الرمل وجلست متحفّزة تستعدّ لمواجهة الأمر وتستجمع قواها الهاربة فى أركان نفسها ·· ووصل زوجها وجلس بجوارها بينما ظلّ الرجل واقفاً ·· ورأت هند الصــورة فى يد زوجها فارتعدت وبلعت انفاسها لتبدو هادئة ونظرت الى زوجها ·· الى عينيه ويديه لتطمئن على حبّه لها وثقته فيها ·· كان كما هــو هادئاً باسماً لم تتغيّر ملامحه الا من معنى طفيف ساخر ··

ووضع حسين الصــورة فى جيب قميصه بتأنّ،ونظر الى زوجته وهو يبتسم قائلا : « تصوّري يا هند الجدع يمشينى لآخر البلاج عشان يورينى صــورة » ونظر الى الرجل نظرة

ساخرة عميقة واثقة وقال له : « حد قالك اني غاوي صور ؟ .. هى صورة لطيفة فعلا لأن فيها هند لكن انت تعبت نفسك » ..

وسكت حسين ووضع يده على جيبه وربت على الصورة برفق وحنان وقال له : « خلاص يا سيدى الصورة وصلت مكانها .. تقدر تروح .. »

وبعدما اختفى الشاب من أمامهما نظرت هند الى زوجها في دهشة .. فرأت عينيه الباسمتين فى عينيها وأحست يديه الحبيبتين الواثقتين على يديها وسمعت صوته الدافئ الحنون يقول لها : « أما مغفل صحيح » ايه يعنى صورة .. وحتى لو كان فيه حاجة انت عارفة انى لا يمكن أحاسبك على حاجة قبل ما تعرفينى .. »

ونظرت هند فى عينيه ودموع الفرح فى عينيها .. إنها لم تخطئ حينما عرفت من أول وهلة أنه فتى أحلامها .. إنه رجلها الذى يثق فى نفسه وفيها .. رجلها الوحيد الذى استطاع بقوته الناضجة الواعية أن يمسّ وجدانها ويهزّ أنوثتها ..

وابتسمت وهى تقول : « دى كانت مجرد مقابلات على البلاج » .

فقال وعلى جبهته تكشيرة وفى عينيه ابتسامة : « كانت شقاوة يعنى ! .. »

وردّت بسرعة : « شقاوة ببراءة » ..

واقترب منها وقبّل كتفها فى حنان وهو يهمس فى أذنها : « أنا عارف يا هند ايه .. » ثم نظر فى عينيها وهو يسألها باسما ككل مرة : « واللا ايه ؟ » وهو يعرف أنها لن تنسى أن تقول له : « ايه » وفعلا كان . وضحكا معاً للمرّة الألف على النكتة .. حتى فى هذه المواقف الخطيرة لا تنسى هى هذه النكتة الصغيرة .

الدوسيه الضائع

دقت الساعة التاسعة صباحاً حينما كان الدكتور خالد يسـير في الممرّ الطويل الضيّق المظلم الذى يقود الى حجرة الأرشـيف وبين شفتيه سيجارة لم يشعلها بعد ، وفى نظراته كآبة حبيسة لم تجد طريقاً الى الانطلاق ..

وأخرج من جيبه علبة الكبريت وأشعل السـيجارة ثم ألقى بعود الكبريت على الأرض الاسفلت،وهو يلعن هـذا الممرّ المظلم الكئيب الذى قاده اليه الحظ السيئ .. منذ ثلاثة شهور ، يأتي صباح كل يوم ، ويتحسّس بقدميه درجات السلم المتهدّمة حتى يصل الى الممرّ الضيّق الطـويل كأنه سرداب فى بطن الأرض ، ويرى « الدولاب » المعدنيّ الذى يرتكن عـلى الحائط اليمـين ، والنضد الخشبي الذى وضع الى اليسـار ، ثم الباب المغلـق الى اليسار أيضا ، ولا يعرف لماذا هو مغلق والى أيّ سردابٍ يقود..

وأخيراً يأتي الباب المفتوح عن اليمين وعليه لوحة نحاسـيّة صغيرة كتب عليها « الأرشيف » .

وتنهّد الدكتور خالد وهو يدخل من الباب الصغير الى حجرة مظلمة رطبة ، يبتلع نصف مساحتها تقريباً دولاب خشبيّ كبير له أرفف كثيرة تختفي تحت عدد لايحصى مـن الدوسيهـات ، ويشغل النصف الآخر مكتب خشبيّ كبير، أسود اللون ،ينوء

تحت أكوام من الدوسيهات . ومن خلف هذه الأكوام يظهر راس محفوظ افندي موظف الأرشيف بنظارته السميكة البيضاء وشعره الأبيض . يرتكز على جسد نحيل يغرق في بدلة واسعة قديمة كأنها صُنعت له منذ عشرين او ثلاثين عاما حينما كان شاباً ممتلىء الجسد لم تنحل وبره السنون بعد .

وكان محفوظ افندي كعادته يكتب شيئاً حينما دخل الدكتور خالد .. انقضت ثلاثة شهور بأكملها والدكتور خالد يأتي الى الى هذه الحجرة صباح كلّ يوم ولا يرى محفوظ افندى الا وهو جالس يكتب ونظارته البيضاء السميكة تتدلّى على ارنبة أنفه فيخيّل إليك في تلك اللحظة أنّه لا يرى شيئاً إلاّ أنفه . لكنّه حينما يرفع رأسه ويبربش بعينيه في الفضاء ثم يقول بصوته الرفيع: اهلا دكتور خالد اتفضل . تعرف في هذا الوقت أنّه قد يرى شيئاً آخر .

وجلس الدكتور خالد كما تعوّد ان يجلس على الكرسي الخشبي الوحيد في الحجرة ، باستثناء كرسي محفوظ أفندي بالطبع إذ له ثلاثة أرجل فقط تركه محفوظ افندى جانبا لمن تسوقه المقادير لينزل ضيفاً عليه .

واسند الدكتور خالد الكرسي الى الحائط وجلس عليه بمهارة اكتسبها بعد خبرة ثلاثة أشهر، وقال لمحفوظ افندى جملته التقليديّة : « صباح الخير يامحفوظ افندي ، خير ان شاء الله ، ياترى لقيت الدوسيه ؟ » وتململ محفوظ افندي في كرسيّه وهو يحرك يديه وقال بصوته الرفيع : أبداً والله يادكتور خالد ، انا مش عارف الدوسيه ده راح فين ، كلّ يوم أفرز الدوسيهات اللى سيادتك شايفها دى واللى في الدولاب الكبير ده والدوسيه بتاعك مش باين أبداً ، حاجة غريبة . زى مايكون عفريت خده، بسم الله الرحمن الرحيم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . وأخرج محفوظ أفندى مسبحة صفراء من أحد أدراج مكتبه ، وأخذ يبسمل على كل حبّة من حبّاتها ويصلّي على النبي ، ثم انتهى منها بعد

دقائق وأعادها فى خشوع الى الدرج ، والتفت الى الدكتور خالد وقال : « أنا رأيي يابيه انك تيجى هنا بكره يمكن ربنا يكون سهل واعتر على الدوسيه منا والا هنا »

وقال الدكتور خالد وهو ينفث دخان سيجارته فى آسى : « لا بكره ولا بعده ، خلاص مافيش فايده »

واهتزت نظارة محفوظ افندى وهو ينفعل قائلا : « لا يابيه ماتقولش كده مافيش حاجة بعيدة على ربّنا أبدا .. ربّنا قادر على كل شيء ، مين يعرف بكره تيجي تلاقي الدوسيه ظهر فجأة كده على وش الدوسيهات ، الإنسان لازم مايفقدش الأمل فى ربّنا بسرعة كده يادكتور » .

وقال الدكتور خالد وهو ينفخ : « بسرعة ؟! ياشيخ حرام عليك ، مش مكفيك ثلاثه أشهر باجي هنا كلّ يوم .. ثم ان ربّنا ماله ياأخى » ؟.

وكأنما أطلق الدكتور مقذوفاً نارياً فى وجه محفوظ افندي أو فجّر فى جسده قنبلة يدوية فانتفض محفوظ افندى على كرسيّه وارتجّ جسده النحيل داخل البدلة الواسعة وقال : « أستغفر الله العظيم ، أستغفر الله العظيم ... »

ثم التفت الى الدكتور خالد وقال فى عتاب ولوم شديدين : « ربنا ماله ؟! بقى ده كلام تقوله يادكتور » ؟

وانفجر الدكتور خالد غاضباً :

« هو أنا قلت حاجة على ربّنا يا أخينا ؟ أنا ماكفرنش ولله الحمد وان كانت المصيبة دى تكفر اللى عمر ماكفر »

وقال محفوظ أفندي فى بلادة : « مصيبة ايه كفى الله الشرّ » ؟

وشدّ الدكتور خالد شعر رأسه وصاح قائلا : « بقه انت لسه مش عارف مصيبة ايه ؟ مصيبتى ! مصيبة الدوسيه . الدوسيه اللى لابس طاقية الاخفاء مصيبة البعثة اللى حتروح منى ! » .

وبربش محفوظ ببقايا عينيه المتآكلتين من وراء الزجاج السميك وقال : « بعثة ايه يادكتور ؟ » ويردّ الدكتور خالد :

« بعثة أمريكا عشان آخد الدكتوراه »

واندهش محفوظ افندي ، واتّسعت المسافة الرفيعة الضيّقة بين جفنيه وقال: « تاخدالدكتوراه ؟! هو انت لسه ماخدتهاش؟ أمال اسمك الدكتور خالد ليه ؟ »

وهزّ الدكتور خالد يديه في زهق وقال : « لا ده موضـــوع شرحه يطول ، المهم ان ضياع الدوسيه ح يضيع عليّ البعثة » ٠

وقال محفوظ افنديفي غباء : « ليه يابيه ؟ »

ووقف الدكتور خالد وقد نفد صبره وقال : « أوف ! ربنـــا يطوّلك ياروح ! »

تلفّت حواليه في حيرةوقال يخاطبنفسه « وبعدين !الدوسيه ضاع ! مش معقول ! والبعثة ! آخ ياني !»

ونظر الى محفوظ افندي يحاول أن يفتّش فيجزء منه عنقبس من الأمل في العثور على الدوسيه ، لكنّه وجده وقد انكفأ عـــلى الشيء الذي يكتبه دائماً ونظارته السميكةمتدلية على أذنه وكأنه نسي وجوده تماماً ٠٠٠

وخطرت للدكتور خالد فكرة وهـــو واقف هكـــذا،فانتعشت روحه بعض الشيء ، وخلع سترته ووضعها على الكرسيّ الخشبيّ وشمّر عن ساعديه وبدأ يفرز بنفسه الدوسيهات واحداًواحداً ، ومحفوظ افندي غائب عن العالم في الشيء الذي يكتبه ٠٠

وانقضت ساعات والدكتور منهمك في البحث حتى تصـــبّب منه العرق وشعر بألم في أصابع يديه ، لكنّه كان متحمّساً يعمل بأمل جديد انقذه من الشعور الكئيب باليأس ٠٠٠ وانتهى مـــن الدوسيهات التي فوق المكتب فانتقل الى الدوسيهات المتراصّـــة في الدولاب وانعمل فيها البحث والتفتيش ٠

ولم يجد شيئاً ٠٠ وعاد متعباً يائساً ولبس ســـترته وجلس على الكرسي بعد أن أسنده الى الحائط ونظر في أسى الى محفوظ أفندي وقال :« حاجة تطير العقل الدوسيه بتاعي مش هنا ! »

وتهلّل وجه محفوظافندي وقال : «عشان تعرف إنيماكدبش

أبداً ، وأنا عارف شغلي كويس خالص ، وحافظ الارشيف ده ورقه ورقة ، ده أنا بقى لى خمسة وثلاثين سنة فى الشغلة دى يادكتور ٠٠ » وأطرق الدكتور خالد فى حيرة وأسى ، ونظر محفوظ افندي الى النافذة ثم صاح : « ياه ! ده الشمس راحت من فوق الحيطة اللى جنبنا ٠

ونظر الدكتور فى ساعته ثم قال : « اتنين ونص ٠٠ »

وشد محفوظ افندى نفسه من فوق الكرسى بصعوبة وقال وهو يتأوّه : آه ياكعبى الشمال ٠٠ شوف يادكتور أنا اديت الحكومة نص ساعة زيادة من وقتى ٠٠ لكن معلهش أنا مش بادقق ، ربنا قال اعمل الخير وارميه البحر ٠٠٠ آه ياكعبى الشمال ! الرومانزم يادكتور تاعبنى خالص ، أعمل له ايه بس ؟ » ٠

ونظر الدكتور الى كعب محفوظ أفندي فى حركة آلية يفعلها أيّ طبيب حينما يتأوّه الىجانبه مريضويشكو من جزء فيجسمه ٠٠٠ ورأى الدكتور شيئاً على الأرض ! ولم يصدّق عينيه أول الامر ٠٠ فاغمضعينيه وفتحهما ثم أعاد النظرمرة ومرتين وثلاثاً ٠٠٠ ولم يشعر إلا وهو يقفز من فوق كرسيّه كالمجنون وصاح فى وجه محفوظ أفندى قائلا : ايه ده ؟

ونظر اليه محفوظ افندىفى تعجّب وقالفىبلادة : «كعبي٠»

وقال الدكتور : « ايه اللي تحت كعبك ده ؟ »

وقال محفوظ أفندي وهو يأخذ مسبحته من الدرج ويغلقأدراج مكتبه :

« ولا حاجة ٠٠ دول شوية دوسيهات حطّيتهم تحت كعبي يحوشوا عنى رطوبة البلاط ٠ »

واخرج الدكتور الدوسيهات من تحت المكتب وفرزها بسرعة ثم تهلّل وجهه فجأة وهويمسك بأحدالدوسيهات وصاح : «آهه! الدوسيه بتاعي ياراجل يامجنون ! بقى تدوّخني ثلاث شهور

والدوسيه بتاعى تحت رجليك ! مستقبلى كله تحت رجليك!أما معتوه صحيح !»

وبربش محفوظ افندي من تحت نظارته السميكة وقال فى برود : « اسكت يادكتور اسكت ده ربنا . »

وقال الدكتور فى دهشة : « ايه ؟ ربناقالك تحطّالدوسيهات تحت رجليك .. »

وحرك محفوظ افندي حبّات مسبحته فى خشوع وقال : «لا يادكتور ، ده ربنا زي ماقلت لك قادر على كل شيء ، مش قلت لك إن ربنا يمكن يظهره كده فجأة على وش الدوسيهات ... ياسلام ياما انت كريم يارب » ..

ومات الحبّ

كنت أجلس على حافة السرير بجواره ، وهو نائم ‥ عيناه مغمضتان ‥ عيناه الحبيبتان اللتان كنت أنظر فيهما فتشرق الدنيا فى عيني ‥ عيناه السوداوان يكسو بياضهما دائمــا حمرة خفيفة تضفي على نظراته قوة ، وصدق عاطفة ‥ وملامحه كلها نائمة غائبة فى ملكوت آخر ‥

ومددت يدى فى رهبة ، وتحسّســت جبينه ‥ وسرت فى جسمى قشعريرة باردة ‥ وانتقلت أصــابعى فى غـير وعي تتحسّس خدّيه ، وأنفه ، وشــفتيه وجفنيــه ‥ ولم أدر كيف اشتفت لأن أنظر فى عينيه ‥ لأن أرى ولو لمرّة واحدة ســواد عينيه الحبيب الذى كنت أنظر فيه فأرى الدنيــا بأسرها تشرق وتبتهج ‥ ووجدت أصابعى تفتح الجفنين في تهيّب ‥وانحسر الجفنان عن عينيه ‥ ورأيت سوادهما نائماً غائمــاً ‥ ليست فيه حياة ‥ وليست فيه دنيا تشرق ‥ وليس فيه أيّ شيء ‥ سواد ميت غارق فى بيــاض ميت ‥ شيء كرويّ أســـود !‥ جماد ! ‥

لا ، ‥ لا ! ‥ وانطلقت منّي صرخة لم يســـمعها أحد الا أعماقي الحزينة المفجوعة ‥وتركت أصابعي جفنيه فانزلتا على

عينيه كالستائر تخفيهما عنّي ، وكانما أشفقا عليّ من التحديق فيهما ...

وانتفضت .. إنّ عقلي يأبى أن يقبل هذا الواقع الشاذّ الذي يشبه الخيال .. لقد كان أبي منذ دقائق يمـــلأ هذا البيت نشاطاً ، ومرحاً ، وحياة ! .. لقد كانت عيناه .. عيناه .. هاتان ! .. تتألّقان ببريق يعكس الدنيا بكلّ صورها .. كيف؟ .. كيف تخمد هذه الحياة فجأة ؟ .. كيـــف تنطفئ هاتان العينان ، وتصبحان قطعتين كرويّتين من جماد ؟ أهذا هو الذى يسمّيه الناس موتا ؟ ..

وأحسست بدموع ساخنة تجري على وجهي .. ورأيت وجه أبي يشحب عمّا كان . واتّخذت ملامحه شكلاً رصيناً رهيباً .. كأنها ملامح تمثال نحت من الجرانيت .. وأمسكت وجهه البارد في يدي ، وقرّبت شفتيّ من بشرته ، وقبّلته ، وهمســت فى اذنه ، « أبي .. أين أنت ؟ هل تسمعني ؟ . إنّنى أحبّك » .. وشعرت براحة بعض الشيء .. كان كلماتى من صـــــدقها ، وحرارتها ، أذابت جليد الموت ، وبعثت فى أذنيه الحياة فسمعني .. وابتسمت وعانقته .. وأخذت أتحسّــــس جيوبه ، وكان لايزال بالمنامة الجديدة التى اشتراها بالامس .. ووضعت يدي فى جيب الساعة العلوي فوجدت نظّارته ، وقلمه ، وعلبـــــة سجائره .. وخفق قلبي من الدهشة .. هذه الأشـــياء ! .. أشياؤه ! .. تؤكد لى أنّه لم يمت لأنها تعيش فى جيبه حيّة تنتظره ! .. وتأمّلت نظارته .. وخيّل إليّ أن فيها حياة .. أنّ فيها عينيه تنظران .. ونظرت الى قلمه الحبر .. ورأيت أصابعه تلتفّ حوله تكتب .. وارتعشت أصابعي ، وأنا أعيد هــــذه الأشياء الى مكانها فى جيبه .. وأزحت الملاءة عنه قليلاً لابحث عن يديه .. وأمسكت أصابعه بأصابعي .. آه ! .. وأمسكت يده بكلتا يديّ ، ووضعت وجهي فى راحته الكبيرة ، وبكيت ..

ولم أدر إلاّ بيد على كتفى ٠٠ فوقفت ٠٠ وغطّيت أبي بالملاءة حتّى وجهه ، وأغلقت عليه الحجرة ٠٠ لا أريد أن يرى أبي أحد وهو راقد شاحب ضعيف ٠٠ إنّ الضعف عورة ٠٠ ولا أريد أن يرى أحد عورة أبي ٠٠ أبي الرجل القوي ٠٠ العملاق ٠٠ الذي علّمني كيف أمشي ، وكيف أتكلّم ، وكيف أحبّ ٠٠ كنت أجلس الى جواره كلّ ليلة وأستمع الى حديثه العذب ، وهو يشرح لى كلّ شيء ٠٠ حتّى الحبّ ! ٠ وكان بطبيعته فنّاناً يعشق الفنّ ٠٠ وفى ليلة سألته : «ماذا تفعل يا أبي لو عرفت أنّنى أحبّ » ٠٠ وكان يجلس بجوار المدفأة ، فنظر إليّ مدقّقاً ثم قال:

« لا شيء ٠ المهمّ أن يكون إنساناً يستحقّ هذا الحبّ ٠ »

وسألته : « وكيف أعرف أنّه يستحقّ ؟ »

قال : « مادمت لاتعرفين فهو لايستحقّ ؟ »

وسمعت فى البيت ضجّة ، وصخباً ٠٠ ورأيت أناساً كثيرين ، رأيتهم من قبل ، يلبسون السواد ، ويروحون ، ويجيئون لا أدري لِمَ ؟ ٠٠ وبعد وقت لم أعرف مداه رأيت الرجال يحملون أبي فى صندوق خشبيّ ، ونزلوا به الى الشارع ٠٠ وانطلقت العربة ٠٠ وكنت أجلس فى العربة نفسها بجوار الصندوق ٠٠ ولم أكن أبكي ٠٠ لكنّ شيئاً ثقيلاً كان جاثماً على صدري يقبض على قلبي بيد من حديد ٠٠ ونظرت من نافذة العربة الى الطريق فوجدت الحياة على أشدّها ٠٠ الناس يجرون ، والعربات تتسابق ، والشوارع كلّها مليئة بالصخب والسعي والكفاح ٠٠ وتراخت اليد الحديديّة عن قلبي بعض الشيء ، وجذبت نفساً عميقاً من هواء الشارع ٠٠ ثم نظرت داخل العربة فوجدت صندوق الموت ، يحمل أبي ٠٠ فعادت اليد الحديدية تقبض على قلبي من جديد ٠٠

وسارت عربة الموت وسط عربات الحياة السريعة ٠٠ وأنا أجلس داخلها أجترّ آلامي وأحزاني ٠٠ وأخيراً وصلنا ٠٠ وأنزل

الرجال صندوق أبي ووضعوه على الأرض ، ثمّ فتحوه وحملقت داخل الصندوق لأرى أبي ·· وخفق قلبي خفقة عنيفة كأنه يفرغ بها كلّ دمه ·· ورأيت أبي ملفوفاً في أقمشة بيضاء لا تظهر منه شيئاً ·· وحملوه ، وأدخلوه في حفرة صغيرة ، ثم أهالوا عليه التراب ، وتلفّتّ حولي في ذعر ·· كأن الدنيا قد خوت وأقفرت ·· او كأنّ ريحاً عاتية أقبلت واقتلعت أبي ، فأصبحت انا في مهبّ الرّيح أنتظر دوري ·· ورأيت الرجال ينفضون عن ملابسهم ، وأيديهم ، الترابَ في آليّة غريبة ، وكأنّهم فرغوا من وجبة غذاء عاديّة ، ولم يواروا الثرى إنساناً كان هو بصري وسمعي وحياتي ··

وبقيت وحدي كالمذهولة أحملق في الحفرة الصغيرة التي ابتلعت أبي ·· اهكذا ؟! ·· أهكذا ينتهي الإنسان ؟! · أهكذا ينتهي أبي ·· الرجل القويّ الجبار الذي كنت أنظر اليه كعملاق تطاول هامته السماء ؟! ·· أهكذا ينتهي به المطاف الى أن يرقد في حفرة من التراب ؟! ···

لا ! ·· لا ·· ! ·· صرخت من أعماقي في ثورة ، واندفعت الى مكان الحفرة ، وأخذت أنبش بأصابعي في عصبيّة تشبه الجنون ·· لا ! · إنّني لا أقبل هذا ! إنّها نهاية قاسية ! لا أقبلها أبداً ·· سأتحدّاها ·· سأنبش حتى أفتح هذه الحفرة · واخرج أبي منها ! وأحسست بثورة في أعماقي تندلع وتضطرم ·· ثورة على الحياة ·· وثورة على الموت ·· وثورة على ··

وأفقت على يد تسحبني ، وصوت يقول لي : « هيّا بنا نعد » وعدت مع اليد التي سحبتني أنظر الى الحياة شزراً ·· وانظر الى الناس شزرا ·· وأسخر في أعماقي من جريهم ، وحماسهم ، وأقول لهم في نفسي : « كفى ·· كفى ·· كفاكم جهلا وجريا ·· ألا تعلمون مانهايتكم ؟ ·· حفرة في التراب ·· تراب يهال عليكم ·· تراب في تراب ! ·· »

ولم البس السواد ·· كان موت أبي ·· بل مشكلة الموت

نفسها تشغل تفكيري كلّه حتى أنّني كنت أضع ملابسي على جسمي بلا وعي ، ولا أكاد أعرف لون الرّداء الذي أرتديه ٠٠
وجاءني صوته في التليفون حزيناً ، معزّياً ، مخفّفـــا ٠٠ والحقيقة انّ هزّة الموت أنستني هـذا الصوت فترة ٠٠ لـكنّي رغم ذلك كنت أنتظره ٠٠ كنت أتلمّس شيئاً قويّاً من الحيـاة يعيدني اليها ٠٠ شيئاً عنيفاً يهزّني فتسقط عنّي ، بعض الشيء، غشاوة الموت القاتمة ٠٠ وما من شيء يستطيع أن يفعل ذلك إلاّ الحبّ ٠٠

وقلت له وأنا أتشبّث ببقـايا حمـاس في قلبي : « أريد أن أراك ٠ » قلتها ببساطة ٠٠ وكانت المرّة الأولى التي أقـول له فيها أريد أن أراك ٠٠ كنت أشعر أحياناً برغبة في النطق بها ، لكنّ شيئاً ما في أعماقي يمنعني ، فأقول شـيئاً غيرها ، أو عكسها ، أو لا أقول شيئاً على الإطلاق ٠٠ لكنّي بعد أن شـهدت الموت رأيت الحياة أبسط وأتفه من أن أكتم في صدري كلمة أريد أن أنطق بها ٠٠

ودعاني الى بيته ٠٠ وتردّدت قليلاً ، ثم وافقت ٠٠ ولبست ملابسي بإهمال زاد بعد موت أبي عمّا عهدته في نفسي ٠ ٠ ولم أضع على وجهي أيّة مساحيق ٠٠ ونظرت الى عينيّ طويلا في المرآة وقلت لنفسي : « ليس في الحياة شيء يبعث على الذعر حتى ذهابي الى بيته ! ٠٠ »

ووصلت الى بيته دون مشقّة كبيرة ٠٠ وفتح لي الباب ٠٠ ورأيته لأول مرّة بعد موت أبي ٠٠ ولا أدري تماما ماذا كان وقع منظره عليّ وهو في بيته ٠٠ هل ضـاعت هيبته الجميلة التي كنت أهواها فيه ، أم أنّ موت أبي أضاع هيبة الحياة بكلّ ما فيها حتى هو ! ٠٠

وقال بعد أن تكلّمنا قليلاً : « لم أرك فاترة كاليوم ٠ »

وقلت : « لقد جعل الموت الحياة باهتة في عينيّ ٠ »

فقال : « بالعكس ٠ إنّ الموت يجعل الحياة في عينيّ زاهية ٠

تصوّري لو أننا نعيش الى الأبد · كيف تكون هناك حياة اذا لم يكن هناك موت ؟ · وعلى كلّ فإنّ الموت مصيره الى الموت كما قال طاغور · »

واقترب منّي قليلاً وقال : « لم أكن أتصوّر أن شيئاً ما في العالم يستطيع أن يغرس الحزن في عينيك ·· لم يكن التشاؤم أحد صفاتك · »

قلت : « بل إنّ التشاؤم أحد صفاتى » ·

ولا أدري لماذا يثير الرجل حزن المرأة ·· لعلّه يرى فيه نوعاً من الضعف أو الأنوثة ·· ورأيته يقترب منى أكثر ·· ويأخذ يدي فى يديه ، ويقبّلها ·· وهمس قائلا : «أحبّك» · وكأنني لم أسمع كلمته ·· ولم أحسّ قبلته ·· فلم تهتزّ خليّة واحدة في جسمي ·· وشعرت بالصقيع يحوطنى من داخلي ، وخارجي ·· ولم أجد فى نفسي شيئاً من الحرارة حتّى لأسحب يدي من يده ·

كان عقلي قد تجمّد عند فكرة الموت ، ووقف عندها ينظر الى الحياة شزرا ، ويرى كلّ مافيها تافهاً حتى الحبّ · · فلا هو يعارض ، ولا هو يحبّذ ·· يستسلم لما يحدث فى سلبيّة مطلقة تشبه الموت ·

ورأيته يبتعد عنّي ثم يقول : « أنت لا تحبّينني »

وقلت : « إن الموت ·· » وقاطعنى قائلا : « لا ·· لا تقولي الموت ·· الموت لا يغيّر شيئاً من الحبّ ·· »

وسكت ·· ورحت أفكّر وأبحث فى زوايا نفسي عن حبّى له لكنّي لم أجد شيئاً ·· كأنّما تبخّر حتى آخر قطرة ··

وقلت فى عجب : يا إلٰهى إن الموت أقوى من الحبّ ··

وسمعته يقول : « بل الحبّ أقوى من الموت ·· اذا كان حبّاً حقيقيّاً ، اما اذا كان وهماً فإنّه يبهت ويتلاشى بجوار لون قويّ صارخ كلون الموت » وودّعنى وهو يقول : أرجو أن تقابلى حبّك الحقيقي يوماً ما لتصدقّي كلامي ··

لم أصدقه في ذلك اليوم ·· لكنّي أحسست بشعور خفيّ ينبئني بأنني سأصدّقه يوماً ما ··



سوسن

كانت تشبّ على أطراف أصابعها لتطلّ برأسها الصغير من فوق جدار الشرفة المبنيّ بالطوب الأحمر ، واستطاعت بعد محاولات كثيرة أن ترى العربة الصغيرة الزرقاء وهي واقفة أمام الباب تحت الشرفة تهتزّ وتنتفض وتصدر عنها أصوات لاتعرف مصدرها تشبه « الشخشخة » التي تسمعها وهي تتفرّج على المركب الصغيرة تسبح في حوض الماء ٠٠ تلك اللعبةالجميلة التي احضرتها لها أمّها منذ أيام في عيد ميلادها الرابع ٠٠

وشبّت على أطراف أصابعها أكثر وأكثر حتى استطاعت ان تدلي رأسها من الشرفة لترى العربة الزرقاء وهى تنطلق مسرعة في الشارع القصير ثم تنحني الى اليسار وتختفي ٠٠ وأسندت ذقنها الصغير على حائط الشرفة والدموع تنهمر من عينيها الصغيرتين ، ونظراتها الزائغة اليائسة تتعلّق بنهاية الشارع الذى ابتلع العربة لاتدري الى أين ، وقلبها الطفل يدقّ دقّاًسريعا متواصلاً وقد اجتاحه شعور بالخوف والفقدان ، وأنّ تلك القوّة التى ترعاه وتحميه قد ركبت العربةواختفت فى نهاية الشارع٠

ونادت بصوتها الرفيع الباكي : « ماما ٠٠ ماما ٠٠ »، وظلّت نظراتها اليائسة ترقب نهاية الطريق ، وقد صوّرلها املضعيف أنّ العربة الزرقاء ستعود منه فجأة ٠

ولكنّ العربة لم تعد ٠٠ وبقيت نهاية الشارع خاوية مقفرة كخرابة مهجورة ، ولم تعرف أيّ وقت مضى وهي واقفة متكئة بدقنها ويديها على الحائط حتّى جفّت الدموع على خدّيها وكفّت عن نداء أمها ، وأغمضت عينيها وراحت في النوم ٠

وفتحت عينيها بعد فترة فوجدت نفسها في السرير الكبير ترتجف من البرد ٠ وقد بلّلت الفراش وتعرّى جسمها الصغير بعد أن رفست عنها الغطاء وهي نائمة كعادة الأطفال ٠ ونهضت من السرير مسرعة وخرجت الى الشرفة ونظرت الى نهاية الشارع علّها تجد العربة الصغيرة مقبلة ٠٠ ولمّا لم تجد شيئاً دخلت يائسة الى الحجرة وقد بدأت تحسّ بالجوع ٠٠ ودارت فى حجرات البيت الواسعة الخاوية لتبحث عن دادة فاطمة ٠٠ ووجدتها ٠٠ كعادتها متكوّمة حول نفسها على الأريكة في حجرة النوم المهجورة في أقصى البيت ، والتي ليس بها إلاّ سرير قديم تنام عليه دادة فاطمة وبعض الأثاث العتيق الذى استغنت عنه الأسرة ٠

ـ جوعتي ياحبيبتى ؟ ٠٠ ده انت من الصبح ماكلتيش ٠٠ ياضنايا ! ٠٠ تاكلى ايه ؟ أجيب لك شوية رزّ وفاصوليا ولحمة؟

وفكّت قدميها ويديها وفردت جسمها النحيل اليابس ، وقامت فى تكاسل وهى تقول لنفسها : « أنا عارفه قلب أمك ده ايه ! حجر ! ٠٠ ياقلبها ياختى تهون عليها بنتها كده ! » ٠٠ ومسحت بكفّها دمعة سالت على خدّها فقد تذكّرت ابنتها الطفلة أيضا ٠ وقد تركتها فى البلدة مع أبيها المشلول وجاءت هي الى القاهرة لتشتغل وتعولهما ٠٠ وقالت لنفسها : طيّب أنا سايباها عشان أأكّلها وشرّبها ٠٠ لكن دي سايبه بنتها ليه ؟ عشان الراجل! ٠٠ أخص عليها ٠٠ راجل ايه وهمّ ايه ! هو فيه بعد الضنى حاجة ! ٠٠ »

وجلست سوسن على المائدة ترقب دادة فاطمة وهي تروح وتجيء وتضع الأطباق أمامها ٠٠ وتأمّلت اصابعها الغليظة الجافة

وهي تمسك بالأطباق فتذكّرت أمها بأصابعها الرفيعة الرقيقة وهى تعدّ لها الطعام فى بيتها ..

• هي ماما بتروح فين يادادة ؟

ـ بتروح المدرسة ياحبيبتى عشان تدرس للأطفال وتعلّمهم الحساب .

• أنا عاوزه اروح معاها المدرسة .

ـ لما تكبري ياحبيبتى شوية كمان تروحى المدرسه .

• وهى ماما بتبات فين ؟ .. فى المدرسة ؟ ..

ـ أيوه فى المدرسة .

وتنهّدت دادة فاطمة ، ومسحت عينيها بكمّها ، ثم جرّت هيكلها النحيل وذهبت الى حجرتها .. وجلست سوسن تأكل وحدها ثم تذكّرت المركب فقفزت من فوق كرسيّها وذهبت الى صوانها الصغير وأخرجت منه المركب وملأت الحوض بالماء ، وجلست تتفرّج على المركب وهى تسبح فى الماء وتحدث شخشخة غريبة تشبه الصوت التى تحدثه عربة أمها الصغيرة حينما تهتزّ وتتحرّك وتأخذ امها وتجري فى الشارع ثم تختفى ..

وضاع رونق المركب فى عينيها ، وفقدت اللعبة لذّتها فامسكتها بيدها وأغرقتها فى الماء ، ثم جرت الى الشرفة لتنظر الى الشارع علّها تجد عربة أمّها قادمة اليها .. لكنّها لم تجد شيئاً فشبّت على أصابعها لترى الشارع أكثر ،لعلّ العربة مختبئة هناك تحت الشرفة .. وتدلّت رأسها فى الهواء دون أن ترى شيئاً .. فعادت الى دادة فاطمة منكّسة الرأس تبكي بلا دموع وقالت لها:

ـ عاوزة أروح لماما .. ودينى يا دادة لماما »

ـ ياقلب أمك ياحبيبتى

ومدّت دادة فاطمة يديها المعروقتين وأخذت الطفلة بين ذراعيها وربتت عليها .

ـ ياضنايا أوديكى لماما .. حاضر أوديكى لماما .

وقامت من جلستها ولبست رداءها الاسود الذي تلبسه عند

الخروج ، وقالت لنفسها في ثورة : « حوديها لأمها .. بلا وجع قلب ! تشوفلها طريقة في بنتها .. هو أنا حاقعد لهم ! .. هو أنا ماعنديش قلب ! .. أمال لو ماكنتش مدرسة قد الدنيا ولها ماهية تغنيها عن أي راجل كانت عملت ايه ؟ »

وكادت سوسن تجن من الفرح وهي تمسك بيد دادةفاطمة وتمشي في الشارع ، وراحت تتلفت هنا وهناك وتنظر في كل عربة خلفها علها تجد أمها .. وأخيراً رأت دادة فاطمة تتوقف أمام بيت وتدق الجرس .. وخفق قلبها الصغير حين فتح الباب ورأت أمامها رجلاً طويلا ، هو نفس الرجل الذي تراه يجلس بجوار أمها في العربة .. وتكرهه .. وتخاف منه .. وتحس أنه بأنفه الطويل المقوس كالغراب الكبير أو الحدأة التي خطفت ذات يوم كتكوتاً من فوق السطح .

ووقف الرجل الطويل في فتحة الباب يسدها والطفلة تنظر اليه وقد تراجعت الى الوراء قليلا .. ودادة فاطمة أيضا ربما شعرت بما شعرت به الطفلة فوقفت كالتمثال لا هي تدخل ولا هي تعود من حيث أتت .. ولوخيرت بين الاثنين لعادت من حيث أتت ، فقد بدا لها الرجل غريباً عنها وعن الطفلة ، والبيت ليس لها فيه مكان ..

ونظرت الى سوسن كأنها تستشيرها الرأي ، لكن سوسن لم تتزحزح عن رأيها ، ووقفت تنظر من الشق الصغير من الباب الذي بقي دون أن يسده جسد العملاق الواقف أمامها .. ووقفت تنظر من خلال ذلك الفلق علها ترى أمها .. أو لعل أمها تراها فتأخذها اليها .. لكن أمها لم تظهر .. وسمعت صوت الرجل الأجش يقول : « روحية لسه ماجتش من المدرسة . »

وقالت دادةفاطمة في تخاذل : « طيب نستناها » .

ودخلت سوسن ووراءها دادة فاطمة ، وفتح لهما الرجل حجرة الضيوف .

وجلست الطفلة تتلفت حولها في الحجرة وتنظر الى الصور

المعلّقة بالحائط ·· ورأت أمها فى إحدى الصــور فقامت مسرعة الى الصورة وقالت :

ـ دادة ·· ماما أهه ! ·

وضحكت سوسن في سعادة وكأنها ترى أمها حقيقة ،لكنها مالبثت أن عادت منكسرة بجوار دادة فاطمة وقــد تبيّنت أنهــا ليست صورة أمّها وحدها ، وإنما يقف الى جوارها ذلك الرجل الطويل الذي لاتعرف سرّ ظهوره فجأة في حياتهما ··

وأخيراً سمعت صوت أمّها فى البيت فقفزت من الفرح وجرت خارج الحجرة وهى تصيح : « ماما جت يادادة ! ·· »

وأحسّت سوسن بالدفء الذي كانت تحسّه كلما أخذتهاأمّها بين ذراعيها ، ووضعت راسها علي صــدر أمهــا وراحت تربّت بيديها الصغيرتين على ظهرها ثم قبّلت وجهها وخدّيها وشعرها، وأدخلت أنفها الصغير في شعر أمها وأخذت تشمّه وتقبّله ·

ومضى الوقت سريعاً جدّاً ·· وأفاقت سوسن على صوت دادة فاطمة تقول : « ياللا نروح ياســوسن » وسمعت أمها تقــول لفاطمة : « خلّي بالك منها كويس فى الســكة يافاطمة ، واوع العربيات »

وحملقت سوسن فى وجه أمّها لتفهم السبب الذي من أجله توافق أمّها على كلام فاطمة ، ولماذا لاتبقيها معها فى البيت كما كانا دائما ·· وقالت الطفلة والدمــوع فى عينيهــا : « لا مش عاوزه أروح البيت اللى هناك ·· أناعا وزه ماما ! »

ولجأت الى الصراخ والبكاء ، وتشبّثت بملابس أمها ، ولكنّهافي النهاية لم تجد بدّاً من الاستسلام ، وأخذت الشيكولاتة الكبيرة فى يدها التي أعطتها لها أمّها لتكفّ عن البكاء ، وخــرجت الى الطريق مع دادةفاطمة وهى تشعر بالحزن العميق حتى انهاسارت الى جوار داده فاطمة صامتة واجمة ··

ووصلا البيت ·· وأسرعت سوســن الى سريرها ووضــعت الشيكولاته تحت الوسادة · ثم أخذت تدور فى حجرات البيت

الواسعة الباردة لتجد شيئا يسليها ، لكنها لم تجد شيئاً ٠ ٠
الكلّ لايحسّ بها ، والكلّ مشـغول عنها ٠٠ وأخـيراً ذهبت الى
سريرها وألقت على قطعة الشيكولاتة نظرة يائسة حزينة ووضعت
رأسها على الوسادة ونامت ٠

وفى الصباح ما أن فتحت عينيها حتى تذكّرت امّها ، فوضعت
يدها تحت الوسادة وتحسّست قطعة الشكولاتة ، وأمسكتها في
يدها وهي تفكّر في سرّ ذلك الرجل الغريب الذي تعيش معـه
امّها فى ذلك البيت البعيد ٠

وفجأة سمعت صـــوت عربة فقفزت من السرير وجـرت الى
الشرفة ، وشبّت على أطراف اصابعها ودلّت رأسها فى الهـواء
لتنظر الى الشارع ٠٠ ولم تر عربة امّها الزرقاء وإنّما عربة أخرى
وقفت أمام باب الجيران ٠٠ وزاغت نظراتها الحزينـة فى طـول
الشارع نفتّش عن عربة امها ، وتعلّقت عيناها بنهاية الشارع
التى تبتلع العربة في كلّ مرة ، وانهمرت الدمـوع من عينيهـا
فى ثنية الشارع ٠٠ وأخذت تنادي بصوت عالٍ باكٍ : ماما !٠٠
وهى تنادي على أمّها : ماما ٠٠ ماما ! ٠٠فقد خُيّل إليها أنّها مختبئة
لعلّها تسمعها وتخرج من مخبئها ٠٠ ولكنّ صوتها الرفيع كان
يرنّ في أنحاء الشارع ثم يعود اليها كما هو ٠٠ وأرهفت أذنيها
لتنصت الى الصدى وقد خُيّل إليها أنّ امّها تردّ عليها ٠٠ ولكنّها
مالبثت أن عرفت أن ماتسمعه ليس إلاّ صوتها نفسه يقـول :
ماما ٠ ٠

وأسندت سوسن ذقنها الصغير عـــلى حافة الشرفة وراحت
تراقب الطريق وهى شاردة يائسة ٠٠

وأفاقت بعد قليل على عربة تدخل فجاة من ثنية الطريق ٠٠
وخفق قلبها ٠٠ عربة زرقاء صغيرة ! ٠٠ عربة أمّها نفسها ! ٠٠
وصرخت من الفرح وقفزت الى أطراف قدميها لتطلّ برأسها من
الشرفة ٠٠

. . . .

. . . .

لم تكن إلاّ لحظة من الزمن خاطفة ٠٠ برقت كنصل السيف ثم سقطت في الماضي كأيّ لحظة من لحظات العمر ٠٠ لـكنها كانت لحظة تساوى الزمن ، ضاعت فيها حياة بأكملها ٠٠

. . . .

. . . .

وملأ البيت الصراخ والبكاء ٠٠ ومن عيون غرقت فى بحر من الدموع انطلقت نظرات ساخطة هى نظـرات دادة فاطمـة تصوّبها الى الأمّ ٠٠ التي جلست كالتمثال لا تبدي حراكاً وكأنما قبضت روحها وهى جالسة ، وكان الى جوارها الرجل الطويل نفسه ، جالسا ينظر إليها ويحاول من حين الى حين أن يغتصب كلمة أو كلمتين يخفّف بهما عنها ٠٠

وكان البيت الواسـع بعد أن انقطع عنـه الصراخ والبكاء يغرق فى لجة من الصمت الكئيب والناس داخله إما جالسون فى صمت حزين ، وإما رائحون غادون فى الحجرات الكثيرة وكأنما يبحثون عن شيء وهم فى الواقع لا يبحثون عن شيء ٠٠

وفجأة مزّق السكون صوت حادّ كطلقة المدفع ٠٠ والتفتوا جميعاً فى فزع نحو الأمّ وقد عقد الذهول ألسنتهم ٠٠ ورأوها ٠٠ الأمّ نفسها ٠٠ منتصبة على قدميها كالنمرة ، ويدها اليمنى ترتفع عالياً في الهواء ثم تسقط في قوّة على وجه الرجل الجالس بجوارها :

ـ أخرج برة ! ٠٠ أخرج ! ٠٠ مش عاوزة أشوفك !

كان صـوتها مجنوناً مبحوحاً ، ويداها طائشتـان ترتفعان وتهويان على وجه الرجل الذى تراجع الى الوراء فى ذهول ألجم لسانه ٠٠

والتفّ حولها أهل البيت وأبعـدوها عنه ٠٠ وذهبت دادة فاطمة الى الرجل الواقف في ذهول كالتمثال وربتّت على كتفه وقالت :

ــ أخرج ياحبيبى أحرج ••

ولم يتزحـــزح الرجـــل من مكانه وكأنه ثبت فى الأرض بمسامير •• ونظرت اليه دادة فاطمة فى دهشة وغيظ وقالت له في شدّة : ماتحرج بقه ! •• هو أنت ايه ! »

ونظروا اليه وهو يجرّ نفسه كالمشلول ويخرج من الباب ، ورأوا الأمّ تجري وتغلق خلفه الباب تم تســـتدير اليهم وعلى وجهها ابتسامة غريبة تشبه ابتسامة الموتى الشاحبة قبل أن تذهب روحهم إلى الأبد •• ولكن سرعان ماغابت الابتســـامة ورأوها تنظر كالمجنونة اليهم وتجـــري الى الشرفة •• وجروا وراءها مذعورين وجذبوها من ملابسها وأغلقوا عليها احـدى الحجرات ••

وجلسوا فى صالة البيت واجمين •• ومن خلال نشـــيجها المكتوم داخل الحجرة المغلقة ســـمعوا صـــوتها وكأنه آتٍ من بعيد : « سامحينى يا سوسن يا حبيبتى •• سامحينى ! •• »

فـــــراغ

وضعت قدمي على سلّم صغير لأصعد فوق المنضدة الحديدية المغطاة بملاءة حمراء من المشمّع ٠٠ وما أن استويت عليها حتى احسست بيد قوية خشـــنة تمسك ذراعي بغير رفق وتربطها برباط من الكاوتشوك ٠٠ ثم تشـــدّ الرباط بقوّة ، وشعرت بألم حادّ في ذراعي انتقل سريعاً الى معدتي وأحسست بطعم شيء غريب في جوفي ٠٠ وفجأة ٠٠ رأيت السماء تكتسي بلون أحمر قانٍ ، ثم أخـــذ اللّون الأحمر يبهت شيئاً فشيئاً حتى أصـــبح غلالة حمراء رقيقة تهتزّ مع النسيم الرقيق على نافذة حجرتي ، ووجدتني أجلس وحدي في حجرتي ٠٠ والبـــاب مغلق عليّ ، أجلس على طرف الكرسي وأضغط أصابع يدي في عصبية وانفعال ، وأهزّ رأسي في ضيق وحيرة.

لقد مللت ٠٠ مللت كلّ شيء ! لم يعد هناك شيء يثيرني ، يحرّكني ، يهزّني ! عرفت كلّ شيء ٠٠ ومارست كلّ شيء ٠٠ وماذا كانت النتيجة ؟ عدماً ٠٠ لا شيء ! عرفت الكفاح المرير من أجل دريهمات قليـــلة ٠ وعرفت الرّخاء والكسل والنعيم بلا تعب ، عرفت دموع الألم والحزن ، وجرّبت دموع الفرح والنشوة ، عرفت الحبّ والكره ٠٠ وجرّبت الأصدقاء والأعداء

عرفت الرجال والنساء ·· ولعبت مع الأطفال لعبـــة الثعلب فات فات ··

مرّت بى سنين كنت أخرج فيها كلّ صـــباح باكر قبل ان تبزغ الشمس لألحق بأوّل قطار يقلّنى الى بني سويف · ولم يكن القطار يحمل إلاّ العمّال والمزارعين والموظّفين الصـــغار من الدرجة التاسعة فما تحت ، وكانت البراغيث تترك كل هؤلاء وتقبل نحوى متبخترة ، وتتسلق ســـاقيّ ·· ثم تبدأ عملها اليوميّ كأنها موظّف حكوميّ نشط ·· وأبدأ أنا فى القفز من مقعد الى مقعد وقد منعني الحياء والخفر من أن أدافع عن نفسي بالطريقة الطبيعية ضدّ هذه الحشرات اللعينة ·

وكان عملي مرهقاً ، أو لعـــلّه كان الذهاب الى عملي هـــو المرهق ·

وانتهت سنوات القحط هذه كما ينتهى أيّ شيء ··ووجدتني فجأة أقوم من فراشي الوثير وأنا أتثاءب فى استرخاء وكســل وأنظر الى عقارب الســـاعة بنصف عين ·· وحينما اجد انّ الساعة لم تبـــلغ الا التاسعة أعود فأغمض عيني واسبح فى أحلام لذيذة ·· فإن عملي ليست له مواعيد ·· أذهب العاشرة او الحادية عشرة ·· أو لا أذهب على الإطلاق ·· تبعـــاً لمزاج سيادتي الشخصي ·· فأنا مديرة كبيرة وليس لأحد سلطان عليّ !

لكنّ سنوات الرخاء لا تلبث أن تدبر كما يدبر أيّ شيء · وأجد نفسى محشورة مع ركّاب الدرجة الثانية فى الاتوبيس بعد أن كنت أركب عربة خاصّة بى وأعطي لسائقها الأوامر بأن يذهب بي حيثما أشاء ·

وكانت لي صديقة حميمة عملها الرئيسيّ فى الحياة هـو ان تسجّل ما يطرأ على حياتى من تغيير ، الى جانب اعمالها الأخرى كربّة بيت لهـــا زوج وأولاد ·· وكانت تقول لي دائمـــا :

يا شيخة حرام عليــكى ٠٠ ده أنا تعبت مش لاحقة أجري وراكى فين والا فين ٠٠ مش ناوية تستقرّي بقى ؟

كانت كلمتها هذه تثير في نفسي كثيراً من الأفكار والأسئلة والحيرة. أستقرّ ؟٠٠ كيف ؟٠٠ ولماذا ؟٠٠ ومتى ؟٠٠

ثم كيف أســتقر وانا أقف على أرض كروية تدور وتلفّ بلا توقّف ؟٠٠ كيف لا أتحرّك وقدماي مشــدودتان الى شيء يتحرك ؟٠٠

لكنّ صديقتى كانت مخلصة ٠٠ وكانت تحبّنى، فلم أشأ ان اغضــبها فقلت لها : « حاضر يا عزيزتى ٠٠ ســأستقرّ ٠٠ ولنبدأ ٠ »

وكانت البداية أن عرّفتنى بعريس ٠٠ فإنّ الاســتقرار في رأي صديقتى هو الزواج ولا شيء غيره ، ولم أكن اعرف ذلك الا بعد أن وجدت نفسى أجلس فى حجرة الصالون فى بيتها ومعي رجل لم أقابله من قبل ٠ ولم يعجبنى الرجل ٠٠ لكنّي رحت مجاملة لصــديقتي افتّش فى ملامحه أو في جيوبه عن شيء يثير الاهتمام ٠٠ لكنّه كان خالي الوفاض من كل شيء ٠٠ حتى عيناه كانتا خاليتين من التعبير !

لكنّي رغــم كلّ ذلك تزوّجته ٠٠ مجاملة لصديقتى ٠٠ لم اشــأ أن اخيّب ظنّها في نفسها ، وفى مقدرتها على إقنــاعي بالاستقرار ٠

تزوّجته ٠٠ لاننى اشــعر نحو صــديقتى بعاطفــة ما ٠٠ لا استطيع ان أصفها ٠ ٠ولكنها عاطفة قوّية تجعلنى افكّر فى بعض الاحيان أن اسعدها٠٠ وأحسست أن زواجي من هــذا الرجل سيكون سبباً فى سعادتها ٠

لكنى لم استطع أن أستمرّ فى إسعاد صديقتي كثيراً ٠٠٠ وهــذا عيبى ٠٠ فانا لا أتحمّل بشيء من الصبر ٠٠ وسرعان ما يصيبنى الملل ٠٠

آه الملل !.. هذا العملاق الفاغر فاه دائماً يبتلع في جوفه كلّ شيء .. ثم يترك من حولي فراغاً كئيباً قاتلاً كأنّه الموت ، فراغ عنيد . .يتبعني أينما ذهبت .. ويطاردني بالليـــل وبالنهار .. لا يخشى رهبة الحـــكومة وموظفيها الموقّرين .. فيتسلّل اليّ من تحت باب المكتب وأجـــده متربّصـــاً بي وانا أقلب الاوراق وأنجز الأعمال .

ولا تخدعه الهوايات التي جمعتها في نفسي ، فيلاحقني وانا الهث أثناء اللعب والمباريات .. ويجلس بجانبي يدندن وانا اعزف على آلتي فتعلو دندنته الغليظة النشـــاز على صـــوت أنغامي .

أستغيث منه ، وأصرخ في أذنه ، والطمه على وجهه ، واكسر القلم في عينه ، واقلب عليه دواة الحبر .. لكنّه ثقيل عنيد لا يفارقني .. فالقي كل ما في يدي وأترك له المكان واخرج الى الخلاء لأشمّ الهواء .. فاذا به يتسلّل مع الهواء الى أنفي ! ..

وأخبط رأسي في جذع شجرة سميكة خشنة حتى تسيل منه الدماء .. لكنه لا يدعني .. فليس هـــو ممن يرهبون منظر الدماء .

ورأيت الناس يُســـيرون اثنين اثنين .. رجـــلاً وامرأة .. والتقت عيناي بعيني رجل يختلف عن الآخرين .. قلت له « أهو انت » .. قال « نعم » ..

وسرنا جنباً الى جنب .. وعرجنـــا على طريق النيل .. وهبّت نســـمة باردة نديّة من صفحة الماء فشعرت بالبرد ، وأحسست بيده في يدي فنظرت اليه ، كان قريباً منّي ويقع على وجهه ضوء مصباح قريب .. وتأمّلت وجهه .. كان غريباً .. لم يكن هـــو الوجه الذي رأيته من قبل .. كانت عيناه صغيرتين حمراوين .. وأنفه كبير الحجم .. وشاربه الطويل يتدلّى على حافة فمه .

ووقفت ·· وسحبت يدى من يده ·· وقلت له : « لنرجع. لقد أخطأت. أنك لست هو · »

وعـــدت الى بيتي ، واغلقت باب حجرتى ، وجلست على طرف الكرسيّ اضغط اصابع يدي فى حيرة وقلق ·· وتلفتّ حولي ·· كأنما افتقد شيئا ·· آه ·· تذكّرت ·· الفراغ ·· اين هو ؟··

ولم يُمهلنى ·· رأيته يدخل منحنياً من فرجة الباب ·· ويقف منتصبا امامي ·· أهلاً ·· فراغ ! ··

وجلس الى جواري بوجهـــه الجديريّ القبيح ·· وقال لي مشفقا : « إنك يا عزيزتى فى حاجة الى شيء جديد » ·

فقلت فى مرارة : « لم يعد هناك شيء جديد » ·

قال : « لماذا لا تسافرين » ؟

قلت : لقـــد سافرت الى كل شـــبر من الأرض يخطر على بالك ·

قال ساخرا : « الارض ! ·· وهل تسمّين هذا سفراً ؟ أنت في حاجة الى تغيير جو الأرض ·· لماذا لا تسافرين الى الزهرة! هيّا ·· هيّا ·· ان آخر سفينة تطير الى هنـــاك فى السابعة مساء · أمامك أقل من ساعة لتعدّي حقيبتك ··

وقلت : « والله فكرة ! عجيبة ·· لماذا لم أفكر فى ذلك من قبل » ؟

ووجدتنى بعد قليـــل اقف فى مطار سفن الفضاء ·· فى يدي حقيبتى ·· وعلى وجهى ابتسامة بلهاء تنمّ عن أي شيء ما عدا الذكاء أو الفهم ·· ورأيت حشدا من النســـاء والرجال يجرون نحو السفينة فجريت معهم ·· وارتقيت بضع درجات صغيرة ثم وجدتنى فى جوف السفينة ، ورايت مضيفة حسناء تبتســـم لي وتقودني الى أريكة صـــغيرة ، ووضعت حقيبتي فى مكان خاص ·· وجلست على الأريكة ، فاذا بى أغطس فيهـــا

كأنني وقعت فى إناء من العجين ، وتلفّتّ حولي لأبحث عن منقذ ينتشلني فرأيت عدداً كثيراً من الأرائك تغطس فيها أجسام كثيرة لا تبدي ذعراً وانما تستلقي في هدوء .. فغطست بدوري في صمت .. وسمعنا صفارة رفيعة .. أعقبها صوت نسائي رقيق يقول : « السفينة ارتفعت . سنتوقف في الزهرة عشر دقائق لنموّن ..

ونظرت فى العدسة التى الى يساري فرأيت الأرض تبتعد عنا بسرعة هائلة .. فشعرت براحة تسري في أوصالى .. وتمدّدت فى أريكتى وأغمضت عيني لأسرح ما اشاء في تلك الرحلة الى الزهرة، وقلت لنفسى : يا لها من مغامرة .. ترى ما شكل الرجل هناك ؟.. وهل عندهم حبّ ؟.. وتركت لخيالي العنان يرسم ما يشاء من المغامرات البريئة ..

وبعد ساعات لم أعرف عددها سمعت صوت المضيفة الحسناء تقول : « تذاكر الزهرة .. » وأخذت حقيبتي في يدي ونزلت من السفينة . وعلى وجهى ابتسامة عريضة جداً استعنت عليها بكلّ مواهبي ، وتلفّتّ حولي لأجد رجلاً او مخلوقاً في المطار فلم اجد .. وسرت اضرب في الأرض الرمليّة علّنى اجد عربة او تاكسيا يقلّني الى البلدة .. وقبل أن اصل الى موقف العربات .. رأيت رجلا يقف في وسط المطار وفي يده حقيبة .. وانبسطت أسارير وجهي لا أدري كيف واتّجهت نحوه .. ولما اقتربت منه وجدته رجلا عاديّا يشبه رجال الأرض وله شارب صغير .. ولم أجد بداً من أن أساله : « هل أنت من الزهرة » فقال الرجل بصوت غليظ : « نعم » . فقلت : « والى أين أنت مسافر ؟ » .. فقال : « الى الارض» قلت: « الارض لماذا ؟ » فقال وهو شارد : « الفراغ » .

وحملقت في وجهه لحظة وقلت : « الفراغ ؟.. إنّه فى الارض . لقد ودّعته منذ ساعات ، فقال غاضبا « هراء . إنه

فى الزهرة - لقد ودّعته انا منـد دقائق ! » .. فقلت له في غضب : « بل إنّه فى الأرض » . فقال في ثورة : « بل إنه في الزهرة ! » . .قلت : « في الأرض » ! قآل : « في الزهرة ! » .. قلت : « في الارض ! » قال : « في الزهرة ! » .. وصفعني على وجهي ! ففتحت عيني .. ورأيت الطبيب واقفاً بجواري يخبط بيديه على وجهي في صفعات ليّنة .. وسمعته يناديني باسـمي سـهير .. سـهير .. مبروك يا ستى .. خلاص العملية ..»

وتقلّبت في الفراش مذهولة أحسّ أنّ راسي قد أصبح في ثقل الكرة الأرضية .. وقلت فى غضب : « فى الارض ! فى الارض .. »

وسالنى الدكتـور ضاحكا : « ايه هـو اللى فى الارض يا سـهير ؟.. » . فقلت وأنا أتثـاءب من أثر المخـدّر : « الفر .. الفر .. ا .. ا.. غ . »

لا شيء

كانت انثى ، فى أنوثتها دفء ، وفى جاذبيتها لهب ..
وكانت حرّة لا يمتلكها رجل لأنّها تمتلك رجالاً كثيرين يحبّونها
ولا تحبّهم .. وكلّما أحبّوها لم تحبّهم .. وكلما لم تحبّهم
أحبّوها .

وكانت ذكيّة لم تبع نفسها لرجل ، فكل امرأة مثلها يمتلكها
زوج كالأسد يراقبها ويحاسبها ، وقد يصفعها او يركلها ثم
يخرج يشكو منها لامرأة أخرى ويبكي كالطفل بين يديها ..
لم تقبل أن تعيش مع الأسد وهو يزأر ، وانتظرت فى بيتها
كالملكة ليأتيها الطفل الشاكي الباكي .. وكم من أطفال اشتكوا
وبكوا بين يديها .. وكانت امرأة لكنّها لم تكن نمرة .. كان
لها قلب ينبض أحياناً وان تراكم عليه غبار الطرق المتربة
التى تسير فيها .. فلم يكن لديها وقت لتنفض الغبار عن قلبها
لأنها مشغولة كرجال الأعمال وملاك الاطيان .. تمتلك اطيانا
من الرجال لا حدّ لها .. من كلّ صنف ، وكلّ طبقة ، وتعرف
كيف تجعلهم يضعون رءوسهم على حجرها ويتنفّسون بهدوء
واستسلام ثم يذرفون الدموع ويشتكون .

ولم تكن تسمع شكواهم لأنّها كانت تسرح دائما ، تنظر بطرف عينها الى الحياة باستاذيّة وكبرياء،فالحياة تحت قدميها .. كل شيء فيها موجود عندها في العربة .. في الشلاجة . في الدولاب .. على الرفّ .. أو في جيب رجل . كلّ شي-سهل الحصول عليه من أيّ مكان قريب أو بعيد . ليست في الحياة مسافات ولا مستحيلات عندها .. الحياة التى تذلّ الملايين من النساء مثلها وتربطهنّ في البيوت كالماشية يغسلن جوارب أزواجهنّ ، وتنصهر بشرتهنّ الرقيقة أمام نار الطهو والشيّ .. وبعد أن يلتهم كلّ زوج الطعام الشهيّ ، ويبدل الجورب المتّسخ ويصدر الشخطة أو التكشيرة يفرّ من البيت والزوجة الى الحياة .. اليها ..

وتتلقّاهم باسمة ناعمة معطّرة . فهي لا عمل لها إلاّ أن تتزيّن وتتعطّر وتدلك ساقيها ويديها .

وكم تمنّت هذه الحياة الخاملة بلا واجبات من زمن طويل حينما كانت في السابعة عشرة من عمرها فتاة صغيرة تتعلّم الآلة الكاتبة لتحصل على عمل .. وفي أوّل شهر قبضت فيه ماهيتها خفق قلبها ولمعت عيناها من الفرح وهي تخفي الستة جنيهات بعد أن عدّتها عشر مرات في بطانة حقيبتها ، وضغطت عليها تحت أبطها حتى لايخطفها أحد الصبيان الذين يقفزون على سلّم الترام ، وأوّل ما وصلت بيتها أخرجت الجنيهات الستة لأمها وهي تنظر في عينيها لتشبع نفسها من السعادة الضخمة التى تحسّها وتراها ، واغرورقت عينا أمها بالدموع وهي تحتضنها وتقبّلها قائلة . « ربّنا يخلّيك يا فريدة يا بنتي .. خلاص ربنا فرجها علينا وعوّضنا بك عن المرحوم »

ومن يومها وفريدة تحسّ أنها تفتح بيت المرحوم ابيها ، وانها تعول اسرتها ، وأصبحت تثق في نفسها كما يثق في نفسه أيّ رجل يفتح بيتاً ويعول اسرة .. ورفعت راسها وهي

تمشي لنشعر العالم أي مسئولية ترعاها وأي أهمّية لوجودها
.. وحينما كان يعاكسها فى الطريق شاب رقيع كانت تنظر
اليه شزرا كأنها تتعجب من جرأته على معاكستها هي التي
تقبض ماهية وتعول أسرة .. أو حينما توشك على دهسها عربة
تتعجّب كيف لايحترم الناس حياتها ويقدرون وجودها لأنه ان
ضاع يضيع معه وجود أسرة بأكملها ..

ولما بلغت فريدة العشرين من عمرها ، واشتدّ بروز نهديها
وضمور خصرها .. تحت الفستان البسيط الذى تلبسه فى
المكتب كلّ صباح ، لاحظت ان سكرتير « سعادة البك » يطيل
اليها النظر وهى تكتب على الآلة الكاتبة ، واختفت لهجته
الخشنة الآمرة التى عوّدها عليها بصفته رئيسها المباشر ..
وكأيّ أنثى فهمت بغريزتها السبب ودبّ الحماس الدافئ فى
داخلها ، وجعلها تتمشّى بخطوات أخفّ وأرشق .. وفى بيتها بعد
ان تأكل ماأعدّته أمّها تذهب الى سريرها ، وتمدّد ساقيها ،
لتقضي ساعة أو أكثر فى تخمين لذيذ عما سيكون سبباً لهذه
الرقّة الجديدة ..

ولم تعش أياما كثيرة فى لذّة هذا التخمين اذ أصبح السبب
مؤكدا واعترف لها السكرتير بحبّه فى ليلة مقمرة بجانب
النيل ، وتذوّقت طعما جديدا لم تعرفه من قبل .. طعم
الرجل .. أنفاسه وعرقه . ولم يعجبها هذا الطعم أو لم يكن
فى مستوى خيالها الخصب، واحسّت أن الواقع صغير بالنسبة
للخيال، لكنّها قنعت به وظنّت انها لن تجد واقعاً خيراً منه
.. فهو رجل مثل كلّ الرجال وهو رئيسها ..

وبعد أيام قليلة اعتادت هذا الواقع والفته ، واصبح أجمل
مما كان .. ولم تتصوّر ان هناك سعادة أكثر من أن تتزوّج
هذا السكرتير لولا أنها اكتشفت سعادة أكبر .. اذ تغيّب
السكرتير يوماً عن العمل ، واضطرت الى القيام بأعماله ،

ودخلت حجرة « سعادة البك » لأول مرة ، وتعثّرت قدماها فى السجاد الفاخر ، ولم تجرؤ على التدقيق فى ملامح « البك » ، لكنّها رات ابتسامه على شفتيه ‥ ابتسـامة رقيقة ‥ وبعـد هذا اليوم أصبح « البك » يطلبها الى حجرته ، ويكلّفها بأعمال ليست من اختصاصها ‥ وبعد انتهاء العمل فى أحـد الأيام لمحت « سعادة البك » وهو يركب عربته ، ولم تتـوقّع أن يناديها بالاسم ، ويدعوها للركوب معه قائلا :

- بيتك فين يافريدة ؟

وتلعثمت وهي تقول :

- فى العباسية ‥

وابتسم وهو يفتح لها باب العربة قائلا :

- تعالى‥ تبقي في سكّتي وأنا طالع مصر الجديدة ‥

وركبت الى جواره ، وهي تلتصق بباب العربة لتحصل على أكبر مسافة بينه وبينها ، واطرقت وهي تفرك اصابعـها ‥ إنّها اول مرة فى حياتها تركب عربة ملاكى ‥ وبجوار من ؟ « سعادة البك » ‥ رئيس رئيسها ، وصاحب الجاه ، والمال ، والمكتب ، وكل شيء ‥ ولم يساورها شك في أن تصرّفات البك معها ماهي إلاّ اشفاق عليها ، وخصوصا وهي كما وصفت نفسها في طلب العمل يتيمة الأب وتعول أسرتها ‥

ولم يدم يقينها بهذا الإنسـفاق طـويلا ، اذ بعـد ثلاثة أيام بالعدد ، كانت تركب بجوار البك ، ولم تكن تلتصق بالبـاب خجلا وانما كانت تلتصق بالبك نفسه الذى حوطها بذراعـه وبين كلّ عموديّ نور يميل عليها ليأخذ قبلة ‥ وكانت فريدة تنظر الى ما حولها كأنها عمياء أو نائمة تحلم ‥ وأوقف البك العربة فنزلت ، وانحنى أمام المصعد لتدخل أمامه فدخلت ‥ وصعد المصعد الى أعلى كأنه يصعد الى السماء ، ثم وقف وخرجت أمامه ‥ وأخرج البك من جيبه مفتاح شقّته ، وفتح البـاب

وانحنى لها لتدخل امامه فدخلت ..

لم تدر فريدة كيف فرطت فى نفسها مع عدا البك رغم أن السكرتير لم يستطع ان يأخذ منها شيئا .. لكنها كانت لا تستطيع ان تخالف البك أو خيّل اليها أنه شرف عظيم لها ان تنام فى أحضانه على فراشه الوثير .. ولم تعرف قيمة مامنحته له من نفسها الا بعد شهر كامل ، بعد أن ملّها البك ولم يعد يوصلها الى البيت او يعطيها مواعيد لتلقاه بالليل كما كان يفعل .. وعادت فريدة منكسرة الى مكانها على الآلة الكاتبة بجوار السكرتير .. وتباعد عنها السكرتير أياماً قليلة ، ثم عاد يبثّها غرامه ، فعادت اليها ثقتها بنفسها وبكت على صدره وهى تحكي له قصتها مع البك بالعكس .. قالت إن البك أحبّها وظل يغريها لكنّها لم تحبّه لأنه سمين وله كرش ثم تركها بعد أن يئس منها .. وأحسّت بالزهو وهي تحكي ولو بالكذب عن انتصارها على البك وزاد زهوها حينما لمحت معالم التصديق فى عيني السكرتير ..

وعرفت أن السكرتير لن يتزوّجها لأنّه متزوّج ولهذا لم تلتزم معه العفّة والادب،وتعمّدت أن تكون مستهترة،فهي تقبله مرّة . وتهجره مرّة .. وتحكي له بالكذب عن مغامراتها مع رجال آخرين لتعذّبه وتهزأ منْ رجولته .. وهي فى الواقع تتمرّن على الخلاعة وتجرّب معه الحياة المستهترة بلا خلق .. ولعلّ تجربتها السافرة هذه هى التى أفهمتها سرّ الرجل لأنها كانت تقلبه وتفتش فيه بجرأة عن نقط ضعفه .. لذلك حينما سكن الى جوارهم ذلك الشابّ الطيّب الذى تخرّج من معهد التربية

واشتغل مدرسا استطاعت فريدة في الدقائق التي تمكثها فى البيت أن تجذب عينيه اليها ثم تجذبه كله بعد أيام ليطلب يدها من أمها .. وقبلت فريدة الزواج بلا تفكير .. لأنه شيء جديد لم يحدث لها من قبل . فقد عاشت مع البك فى شقّته

اياماً طويلة لكنّها لم تعتبر ذلك زواجاً ٠٠ لأنّها تريد ان يعرف الناس انّها تزوجت ٠٠ ان يصبح لها زوج وبيت وأولاد ٠ ان يكون لها رجل تضع يدها في يده في ضوء النهار كالناس الشرفاء، لا ان تتلصّص معه في الظلام كالمشبوهين ٠

وحينما جلس الشابّ الطيّب أمامها ، وأخذ يدها في يده اغرورقت عيناها بالدموع ٠٠٠ دموع الحبّ ٠٠ واحسّت لأول وهو يردد وراء الشيخ العجوز : « لقد قبلتك زوجتي يافريدة » مرة في حياتها انها تحب هذا الشاب الطيب الذي يعلن زواجها امام كل الناس بصوت عال ٠٠

ودخلت معه بيته لأوّل مرّة وهي تحسّ أنها ستبذل حياتها ارضاء لهذا الزوج الطيّب وان تخلص له كلّ الإخلاص ٠ لكنها لم تستطع ٠٠ اذ شعرت بعد أيام قليلة أن امنيتها تحققت وان الناس عرفوا انّها تزوجت ونادوها بالعروسة ثم كفّوا عن النداء ٠٠ وانتهى الحماس الذي كانت تحسّ به نحو هذه الحياة الجديدة ، ولم يعد عندها للزواج معنى بعد هذا سوى ذلك الزوج البارد الذي يتحرّك في البيت بشبحه البطيء البليد فيثير في نفسها شعوراً بالكآبة كأنّها تعيش في قبر وتدفن معها حيويّتها وذكاءها وجاذبيتها ٠٠ وحينما كان يجلس زوجها معها ، يتكلّم ويرى لسانه وهو يخرج ويدخل ، ولعابه الأبيض وهو يتجمّع عند زاويتي فمه تشمئزّ من حديثه وغبائه وتثور فيها نيران التمرّد على هذا القيد السخيف وتتأجّج رغبتها في الانطلاق ٠٠ في الحرّية ٠٠ في الاستهتار ٠ في أن تعيش كلّ لحظات يومها وليلها ٠٠ أن تنشر جاذبيتها أمام الرجال وتستمتع بما تراه في عيونهم من رغبة ولهفة ٠٠

وصمّمت على أن تطلّق هذه الحياة الراكدة ، فهي لا تؤمن بالزواج أيّاً كان ،ولا تحتمل أن تبيع انوثتها ومواهبها لرجل مقابل لا شيء سوى قيود واحتكار والتزامات هي في غنى

عنها ..

وعادت فريدة بحقيبة ملابسها الى بيتها .. وقابلتهـا أمّها بالدموع . فالأم لا يفجعها شيء مثل طلاق بنت من بناتها .. ومسحت لامها دموعها وهى تبتسم ، وقالت لها إنها هي التى طلقت زوجها لانه أناني أراد أن يستـــولي على كل ايرادها ولا يترك شيئا لاسرتها ..

وتنفّست فريدة بهدوء كانها أوقعت عصفورين بحجر واحد .. وجفّفت امها دموعها وهى تدعو على الرجل الأناني المخـادع وتقبّل ابنتها فى حب وامتنان وهى تقول : ربنا يسعدك يابنتى ويعوضك .. طول عمرك بتضحي علشانا ..

وعادت فريدة الى حياتها الأولى .. عادت ربّ البيت الـذى ينفق ويدبّر ويدخل ويخرج بلا حساب .. وعادت اليها ثقتها بنفسها وشعورها بأهميّة وجودها .. وعادت حرّة لا يمتلكها رجل .. وتمتلك رجالاً كثيرين يحبّونها ولا تحبّهم .. وكلما احبّوها لم تحبّهم وكلما كرهتهم احبّوها . لكنّها تعرف كيف تجعلهم يضعون رءوســهم على حجـرها ويتنفّسون بهـدوء .. واصبحت الحياة تحت قدميها .. كل شيء فيها موجود عندها فى العزبة أو فى الثلاجة أو فى الدولاب ، أو فى جيب رجـل .. ليس فى الحياة مستحيلات عندها .

ورغم كل هذا لم تكن نمرة دائما ... كان لها قلب ينبض من تحت الغبار الذى تراكم عليه .. وحينما تحسّ بقلبها وهو ينبض تتطلّع حولها كالمشدوهة وتموت الابتسامة الدائمة على شفتيها ، وتضع يدها على قلبها وهى ترى الحياة أمامها ضخمة كالعملاق وهى تحت أقدامه لا تستطيع أن تلمسه .. لكنهـا تحاول أن ترى شيئا .. فتنظر من بين اقدامه كالشاردة الى نفسها .. الى حقيقتها .. فتجدها . لا شيء

حينما اكون تافهة

جلست على المقعد الخشبي المؤلم واسندت ذراعي التي تحمل راسي على مكتبي ، واخذت افكّر رغم انفي ٠٠ ورغم انني عاهدت نفسى على الاّ افكر ، وأن اشتغل في هـذه الوظيفة كما يشتغل الناس ، لكنني فى هذه اللحظة شعرت بالعجز الكامل عن مقاومة التفكير ، فالأشياء التي تعيش داخل راسي احس لها دبيباًواسمع لها همساً عاليا يكاد يفلق راسي نصفين ٠٠

واستسلمت فى ضعف لأن افكّر ، فوضعت الملفّ الغليظ فى درج المكتب وأغلقت القلم الحبر ووضعته في حقيبتي ، وأعطيت ظهري للرجل الذي يجلس بالقرب منّي لاحجب عن عيني راسه الغليظ ولأبعد أذني عن صوته الأجش ٠

واخذت أفكاري تتقاذفني بسرعة هائلة وانا بينها أدوروالفّ كانني داخل تروس ساقية تدور وتئنّ وتزنّ ٠

وسمعتالأشياء التى تعيش في رأسى تدبّمن فوقيوتقول: « ماهذا الذي أعمله ؟ هل هذا هو طموحي ؟ هل هذه هي آمالي؟ لاشيء ! واحدة من الناس ٠٠ من الملايين ٠٠ أجلس على هـذا

المكتب الخشبي ستّ ساعات متواصلة اقوم فيها لأتمشّى مرّة او مرّتين لألين مفاصلي ثم أجلس ثانية ·· لو متّ هذه اللحظة فلن يفقد العالم شيئاً يذكر، بل لعلّه سيزيد مقعداً خالياً للآلاف المنتظرين على الأبواب يطلبون الشغل ·· لن يشعر العالم بفقدي أبدا ·· ربما سطر أو سطران في ذيل جريدة لايقرأهما الابعض الموظفين المحالين الى المعاش ،

وأحسست بوجوم يجثم على صدري فاغلقت درج مكتبي بالمفتاح وأخذت حقيبتي وخرجت الى الشارع ·· وكانت السماء تمطر رذاذا خفيفا وهواء الشتاء يهبّ بارداً يلفح وجهي ويصيب جسمي برعدة تصطكّ لها أسناني ·· ووضعت يدي في جيبي لأدفئهما وسرت أنظر الى العربات الفاخرة وهي تجري ومن داخلها رجال ونساء لايشعرون بالبرد وينظرون اليّ من وراء الزجاج المحكم في تعال وكبرياء بلا إشفاق على حالي وأنا أصارع المطر الذي بدأ ينهمر ثقيلاً على رأسي فيفسد تسريحة شعري التي دفعت فيها بالامس ثلاثين قرشا أقتطعتها بمشقة من ميزانية الأكل ··

وضعت حقيبتي على رأسي ونظرت شزراً الى امرأة تجلس كملكة في عربة طويلة جداً ·· وقلت لنفسي إنها عربة زوجها بلا شكّ تأخذها منه في الوقت الذي يعمل فيه لتذرع بها الشوارع من أجل لا شيء ·· إن شكلها لايدلّ على أنها تشتغل شيئاً وانما أحد يشتغل من أجلها ·· لايمكن لهذه المرأة أن تصحو من النوم قبل الحادية عشرة صباحا ·· ايّ لذّة تلك التي تجدها في الراحة والكسل !

ومضيت أفكر ·· وخطرت لي فكرة غريبة ·· سأستقيل من عملي وأبحث لي عن زوج يشتغل من أجلي وانام حتى العاشرة صباحا ·· لقد تعبت من القيام مبكرة ·· ماجدوى كل هذا العناء

الذى أنا فيه ؟ لا شيء ! حتى المأكولات التى اشتهيتها وأناتلميذة صغيرة لا أستطيع أن أشتريها .

وأحسست ببرودة أخرى غير قطرات ماء المطر تتساقط على رأسي وأنا أشعر بطموحي وآمالي واحلامي كلّها تتقلّص وتنكمش لتنحصر فى هدف واحد هو العثور على زوج ..

وأسرعت الى بيتى وقد غمرتنى الفكرة الجديدة بنوع من الحماسة .. وحينما وصلت الى العمارة رأيت عربة خضراء طويلة تقف وتنزل منها فيفي .. ورأيت البوّاب يقف لها فى احترام وإكبار ولا يكاد ينظر اليّ وفتح لها باب المصعد فدخلت أمامى .. ودخلت وراءها .. كانت فيفى ممثلة ناشئة لم تشتهر بعد ، لكنها كانت تستاجر شقة بأربعين جنيهاً خمس غرف وكنت أنا أعيش في غرفة واحدة بعشرة جنيهات ، ولا يتبقّى لي من المرتّب الا ستة جنيهات تقريبا انفقها فى الأكل والملبس والمواصلات .. ولا يبقى للبوّاب الا عشرين قرشا أدفعها له فى أول كلّ شهر فى خزي شديد فيرشقنى بنظرة احتقار بالغة وأبلع ريقى وأقول له : « معلهش يا عم محمد ، أن شاء الله فى الشهر الجاى أزوّدك »

وتمرّ الشهور تلو الشهور ولا أزيد شيئا بل لعلّي كنت أنقص وزنا ..

وقلت لنفسى وأنا ادخل شقتى سأستقيل من شغلي وأصبح ممثلة .. ولم لا ؟ انه أسهل طريق للحصول على الفلوس واحترام الناس .. أسهل من الحصول على زوج !

ونظرت الى المرآة اتأمّل ملامحي وأتخيّل نفسي على الشاشة أمثل الناس يتفرّجون .. وأخذت أفتح فمي وأغلقه ، وأنظر نظرة غرام مرة ونظرة عتاب مرة ونظرة انتقام مرة .. مدهشة ورضيت على نفسي .. إنني أصلح للتمثيل ، ياللغباء! كيف ضللت طريقي ودخلت كلية الطبّ ؟

وخلعت ملابسي ولبست ملابس النوم ودخلت السرير دون أن آكل ، إنّ نفسي مصدودة بعد أن انتشيت من بريق المجد والجاه والشهرة التى رسمتها لحياتي المقبلة . وغلبنى النوم فنمت ..

ولم ادر كم مضي من الوقت،لكنّي صحوت على صوت طرق شديد على باب شقتي،فقمت مذعورة لأرى من الطارق ، ورايت عم محمد البواب يقف لاهثاً ويقول لي فى استعطاف : «والنبى يادكتورة عايدة الستفيفى تعبانة جوى وطالبة حضرتكدلوقت»

ووضعت على كتفي روباً صوفيّاً ، واخذت حقيبتي وصعدت مع البواب الى شقة فيفى .. وهناكعلى السرير الناعم الذىيبرق بالحرير من فوق ومن تحت رأيتها .. فيفى .. التى سحرتلبّي بعربتها وملابسهاومالها تنامأمامي وحولعينيها هالتانسوداوان، وعلى وجهها صفرة بائسة .. كانت ترتجف وتئنّ .. ولما راتني قالت في استعطاف : « أرجوك يادكتورة انا عيانة خالص . عندى صداع وحرارة وجسمي كله بيرتعش ، أرجوك تكشفى على » .

وجلست بجوارها ، وامسكت يدها لأعدّ نبضها .. ومضت لحظة صمت رهيبة كتمت فيها فيفى أنفاسها ، ووقف البواب خلفى ، وأحسست كأنه من رهبة الموقف كتم هو الآخرأنفاسه ووقف فى خشوع وإجلال ..

ومددت يدي في ثقة ووضعت السماعة فى أذني .. ونظر البوّاب الى الآلة الصغيرة فى خشوع كأنه ينظر الى شيء سحريّ إلهي فوق قدرته البشرية .. ثم استدار واعطانا ظهره متأدّباً ..

وتركت فيفي صدرها تحت سمّاعتى فى استسلام ، ونظرت اليّ في ثقة واجلال كأنني قادرة على منحها الشفاء فى اللحظة التى أسمع فيها دقات قلبها .. واتممت الفحص ، وكتبت لهاالعلاج ونصحتها بما يجب أن تتبعه ..

ورأيت فيفى تبتسم فى راحة وأنا أضع أدواتى في حقيبتى وأخرجت من تحت وسادتها كيساً ومدّت لي يدها بجنيهين...

لكن تراجعت في إباء وكبرياء وقلت لهـا باسـمة : « لا مش معقول ، ده احنا جيران »

نظرالىّ البوّاب مندهشاً ثم اسرع فحمل عنّي حقيبتى وسار خلفي في خشوع .

وعند باب شقّتى اخذت منه الحقيبة ثم اغلقت بابى ..وذهبت الى فراشي لأكمل نومي ، وابتسمت لنفسي فى سعادة وأناأحسّ بدفء السرير .. ونمت احلم بورقتين ناعمتين كلّ منهما تساوي جنيهاً .

قصة من حياة طبيبة

كتبت الطبيبة « س » في يومياتها تقول :

التقطت نظراتي المرهقة ، نظراتها الفزعة القلقة في استنجادها المكتوم ، وفي حيرتها الهائلة ، وكأنها بعينيها الصغيرتين الزرقاوين وهما تتفحّصان وجهي وتبحثان في أعماقي عن شيء من الرحمة والإشفاق ..

وأحسست أن ارهاق جسمي من كثرة العمل بدأ يتبدّد سريعاً وأنّ نشاطاً جديدا اجتاح أعماقي .. وكأنما أحسّت نفسي أنها على وشك أن تعطي شيئاً من ذاتها ، أو أن تمنح شيئاً لصاحبة هاتين العينين المستغيثتين ، فأخذت تشحن نفسها بطاقة جديدة استعداداً للبذل ...

وجلست الفتاة المتهالكة امامي ونظراتها متشبّثة بوجهي لاتتحوّل عنه مما جعلني لا انتبّه للرجل الطويل العريض الواقف بجوارها .. والذي فطن الى أنني لم أره فأراد أن يشعرني بوجوده فقال بصوت له نبرة مثقّفة لم تهذّب من غلظته وخشونته :

ـ ارجوك يادكتورة إن تكشفي على اختي . اريد أن اطمئن عليها وذلك لاننا سنزوجها في الاسبوع القادم لابن عمها ..

ولا أدري من أين جاءتها الشجاعة فسمعتها تقاطعه قائلة:

ـ أنا لا احبّه ! .. ولا أريد أن اتزوّجه !

ونظرت اليّ في استعطاف :

ـ لا احبّه يادكتورة !

واشار لها الأخ في شدّة ان تصمت وقال محتدّاً .

ـ إنّها لا تريد ان تتزوّج لسبب آخر يا دكتورة .. أظنّك تفهمين . ارجوك الكشف عليها لتطلعيني على الحقيقة..

وعادت العينان الصغيرتان الزرقاوان تفزعان في قلق واستنجاد مكتوم .. واخذت أنظر في أعماقها لعلّي اهتدي الى خيوط القصّة لكني لم أجد فيهما الا فزعا وقلقا ،واسترحاماً .. وكنت على وشك أن اقذف في وجه الأخ برايي .. ان اقول له :

ـ متاسّفة ياسيدى .. انا لا أستطيع الكشف عليها من أجل هذا الغرض .. إنّ الطبّ لم يعمل من أجل هذا .. ثم إنّ هذه المسألة شيء يخصّها وحدها ولا داعي لك كأخ أولي كطبيبة ان نتدخل .

وكأنما احسّت الفتاة بما يراودني فازدادت نظراتها تشبّثاً بي وكانها تقول لى :

ـ أرجوك .. لاتتخلّي عنّي .. سيذهب بي الى طبيب آخر

ووقفت وقدعزمت على أمر . وقلت بلهجة الطبيب حينما يقرّر امرا ، وليس هناك من قوّة تستطيع أن تقف أمام الطبيب حينما يحزم في نفسه أمرا :

ـ تسمح تجلس في الخارج قليلا حتى انتهى من الكشف

واصبحت أنا والفتاة وحدنا .. ونظرت اليها .. وشجّعتها

نظراتي المشفقة الرحيمة على أن تنظر اليّ فى اطمئنان ، قالتفى استعطاف :

ـ أرجوك يادكتورة ·· ارحمينى من هذا الاخ،سيقتلنى !
واقتربت منها قليلا فرأيتها تنظر الى يدي فى فزع وتقول :

ـ هل ستكشفين عليّ؟! أرجوك ·· لا أستطيع ! لاأستطيع !
ووضعت يدي فى جيبى المعطف الأبيض لأطمئنها وقلت لها وانا أجلس الى جوارها :

ـ لاتخافي ·· لن أكشف عليك ·· ولكن قولي لي الحقيقة · وسوف تكون سراً ، لن أبوح به لأحد أبدا ·
قالت :

ـ لا أحبّه يادكتورة ·· ولا اريد أن أتزوّجه ··
ونظرت اليها وابتسمت ابتسامة ذات معنى ·· فقالت :
ـ ولا أحبّ رجلا آخر ··
واحسست أن الفتاة لاتقول الحقيقة ··
ووضعت رأسي بين يدى وفكّرت ·· إنني لن أكشف على الفتاة لان هذا ليس من حقّي الا اذا طلبت منى ذلك ·· وهى لم تطلب بل إنّها ترفض !

واخذت أنظر الى ملامح الفتاة لعلّي أنزع الحقيقة منها ، ولكنّي سرعان ماتراجعت وقلت لها :

ـ حسناً يافتاتي الصغيرة ·· سأخبر اخاك أنّني لا شأن لى بهذا الموضوع
ورأيت الفتاة تقبل نحوي في ذعر واستعطاف :

ـ لا ·· لا ··· ارجوك سيذهب بي الى طبيب آخر قد يكون فظّاً ·· قولي له إنك كشفت عليّ ·· وانني فتاة شريفة ·· هذا شيءيسير عليك يادكتورة ·· مجرّد كلمة تتفوّهين بها تنقذين

بها حياتي ٠٠ إن أخي رجـل قاس ، إنّه سـيقتلني ! ارحميني يادكتورة !

سأقول لك الحقيقة ٠٠ انني أحب رجلا آخر ٠٠ وهو يحبّني وقد اتفقنا على الزواج فى الشهرالقادم ٠٠ أقسملك إنّه لميحدث بيننا شيء مخلّ بشرفى !

ونظرت الى العينين الزرقاوين المسترحمتين وكانّما تؤكّدان لي أنّها على حق ٠٠
وابتسمت لها وكانني اؤكد لها أنّها على حقّ ٠٠ ولكن ٠٠ ولكن ماذا ؟

سالت نفسى ٠٠ وسالت ضميرى ٠٠ وراجعت كلماتالقسم الذى رددته فى أول يوم مارست فيه عمـلي ٠٠ واسـتعدت فى ذاكرتى قوانين الطب ٠٠

ولم أشعر إلاّ وانا أتّجه الى الباب فافتحه ، وطلبت من اخيهـا الدخول ، وقلت له فى ثبات وقوّة :
— ان أختك فتاة شريفة !

قلتها وأناأؤمن بعقلي ووجداني وانسانيتي أنها شريفة٠٠إنّ الطبّ يستطيع فقط أن يفرّق بين المرض وغير المرض ٠٠ ولكن لايستطيع أبدا أن يفرّق بين الشرف وغير الشرف ٠٠
وارتسمت على ملامح الأخ الفجّة ابتسامة لم تكسبها الثقافة من الهدوء المعقول ٠ ابتسامة عريضة ٠٠ كأنه بهذه الكلمات قد اطمأنّ على شرفه أو استردّه ٠٠

وقلت له وقد انفعلت بالشعور الجديد :
— أظن أنّه من اللائق أن تعتذر لأختك عن شكّك فيها ٠٠

واعتذر لها وهو ينظر اليها فى سعادة ريفيّة سـاذجة ثم أخذها وخرج ٠٠

وضعت راسي على كتفي ٠٠ أفكار شتّى تعصف براسي ٠٠
ولم اشعر بيدي وهي تزحف الى درج المكتب وتسحب منـه ورقة بيضاء وقلمـا ٠٠ وكتبت ورأسي مازال ثقيـلا ٠٠ كتبت قسماً جديداً وهو :

« أقسم أن تكون إنسـانيتي وضميري هما قانوني في عمـلي ولمنى ٠ »

ووضعت القلم ٠٠ واحسست براحة لم أشـعر بها منذ فترة طويلة ٠

من أهمل من؟

دقّ جرس التليفون بجوار راسى حادّاً صارخاً ، ملحّاً ، فتقلّبت في فراشي أبعد رأسي عنه ‥ أهرب منه ، ولكنّه ظلّ يهدر في سكون الليل يمزّق من حولي ستائر النوم المخدّرة اللذيذة ‥ يلاحقني كلّما هربت منه ‥ وامتدّت يدي بلاإرادة، ورفعت المسماع الى أذني وقلت وأنا أتثاءب :

ـ الو …

وجاءتني حشرجة خشنة تبيّنت فيها صوت رجل يقول :

ـ الدكتورة موجودة ؟

ـ أيوه .

ـ أرجوك . اسعفيني . أنا مريض .

ـ أين تسكن ؟

ـ شارع الجيزة رقم كذا ٠٠

ـ حاضر ، سآتي ، اليك حالا ٠

قلت الجملة الاخيرة بلا تفكير ، وخلعت ملابس النوم، وارتديت ملابس الخروج وأخذت حقيبتى المعدّة ، وخرجت الى الشارع ٠٠ وركبت سيارتى الصغيرة واتجهت الى الجيزة ٠٠ وكنا فى فبراير والجوّ قارس البرد ، والليـل شديد الظلمة بلا قمر ، ولا أكاد أرى طريقى إلاّ من خلال أنوار المصابيح المتناثرة بعضـها منير ، ومعظمها مطفأ لا أدري لِمَ ٠٠٠

وضغطت بقدمى لأطلق العنان للسيارة فانطلقت بى كالطائرة ووجدتنى بعد دقائق قليلة فى شارع الجيزة ٠٠ ووقفت فى عرض الشارع لاهثة ووضعت يدي على قلبي فى أسى ٠٠

آه ٠٠٠ لقد نسيت رقم بيت المريض ٠٠٠ وأخذت استجمع ذاكرتى وأركزها فى الكلمات التى سمعتها من المريض لكى اذكر الرقم الذى قاله لى دون جدوى ٠٠ كأنما أصبح عقلي مادّة صلبة من الحجر لاتعي شيئا ٠٠٠

وسرت بالعربة يائسة تائهة ٠٠٠ أتخيّل الرجل المريض وهو ينتظرنى بين لحظة واخـرى وانا لا اجيء ، ويظـنّ أننى تلقيت استغاثته ثم استسلمت للنوم ، ولا يعلم أنّني ربّما امرّ من امام بيته دون أن أعلم ٠٠

وفجأة من بين يأسي وحزني لمحت نوراً خافتا في احدى النوافذ فخفق قلبى من الفرح والأمل وقلت لنفسى : هو ا ٠٠ المـريض ينتظرنى ! من غـيره يسـتطيع ان يسـهر الى هـذا الوقت من الليل ؟

ونظرت الى ساعتي كانت الثالثة صباحا فانطلقت بعـربتى تجاه النور ، وأوقفتها أمام البيت ، وصعدت السلم ، ووضعت

يدي على الجرس ، وقبل أن أضغط على الجرس أحسست بهاتف من أعماقي يقول لى وماذا لو لم يكن بيت المريض ؟ ·· وخفت من المغامرة ، وهممت بأن أعود أدراجي ، لكنّي تذكّرت صوت المريض الضعيف الخائر ، وتخيّلته جالساً ينتظرني ، فاندفعت

الى الجرس وضغطت عليه بكلّ قوتي ·· وسمعت صوت أقدام تقترب من الباب ، ورأيت « الشراعة » تفتح ويطل منها رأس امرأة مشعّث ·· ونظرت إليّ المرأة في دهشة كبيرة فقلت لهاعلى الفور : متأسفة ·· هل يسكن هنا المريض الذى »··

وقاطعتني المرأة في صوت حاد مستنكر : « مريض ؟! » ورشقتني بنظرة ارتياب بالغة فاعتذرت لها بسرعة ، وهرولت الى السلم أجري ، وقد أحسست أنها ستجري خلفيوتمسكني من ملابسي ··

وركبت عربتي وعدتالى شارع الهرم أسير على مهل وفى قلبي ثقل كبير ··· ووصلت البيت ، ووضعت مفتاح الشقة فيالباب ودخلت ، فاذا بي أرى زوجي واقفاً في الصالة ولما رآني أقبلعليّ وسألني قائلا : « أين كنت ، لقد استيقظت بالصدفة فلم أجدك ·· أين كنت ؟ »

وحكيت له القصة من بدايتها ، منذ سمعت المحادثةالتليفونية حتى ضغطت على جرس البيت المجهول ، ولاحظت أن أنفاسهتعلو وتهبط ورأيته ينظر اليّ فى دهشة وفزع وسألني:

ـ ومن الذى فتح الباب ؟ رجل أم امرأة ؟ ··

ونظرت اليه فى أسى وقلت :

ـ لم يكن هو بيت المريض ·

لكنه لم يأبه لكلامي وأعاد سؤاله قائلا :

ـ رجل أم امرأة ؟

قلت وأنا شاردة :

ـ امرأة ٠

فهدأت ملامح وجهه وعاد ليواصل فى راحة بال واطمئنان ٠

وجلست فى الصالة افكر ٠٠٠ اشـياء كثيرة ترتطم برأسى وتسبّب لي ألما ٠٠ولم أدر إلاّ ونور الصباح يملأ المكان وأناأجلس وقد غلبتنى سنة من النوم تشبه اليقظة ٠٠٠

وانقضت على تلك الليلة أيام كثيرة خلت أننى نسيتها ٠٠٠ حتى كان يوم كنت اجلس فى عيادتى وقال لى التمورجى إنّ رجلاً يريد مقابلتى ٠٠٠ ودخل الرجل ، ورأيته ينظر اليّ متفحّصا ثم قال :

ـ حضرتك الدكتورة سعاد ٠

ـ ايوه ٠

فمصمص شفتيه وقلّبهما وسكت قليلا ثم قال :

ـ حضراتكم عاملين دكاترة ؟

ودهشت لهذا الهجوم المفاجئ وقلت فى فزع :

ـ ماذا تقول ؟

فقال فى ثورة :

ـ انا كنت على وشك الموت ، ولا دكتور واحد رضى يسعفنى، وفضلت للصبح لغاية ماجانى دكتور ٠٠ لكن بعد ايه ؟ حتى انت يادكتورة قلت لى انك جاية وكذبت على ؟

وتردّدت قليلا فى أن أحكي له القصة ثم رويت له ماحـدث . لكنه لم يصدّقنى وخرج وهو يقول :

ـ طبعا ، كل الدكاترة بيقولوا كده » ٠

وجلست ، وضعت راسى على كفي ، وفى قلبي ألم يعتصره بلا رحمة أو شفقة ٠٠٠ وقلت لنفسى فى اسى ما من احـد عـرف الحقيقـة ٠ لقد ارتابت المرأة التي فتحت لى البـاب في أمري ٠٠ وارتاب زوجى فى الشخص الذى كان بالبيت المجهول ، وارتاب المريض فى أنني خرجت لأسعفـه ٠٠٠ وأنا ؟! وانا اعـلم أنني فعلت ذلك بكل وعي وكامل ارادتي ٠٠٠ ولكن ما الفائدة ومامن أحد غيري يعلم ؟

واحسست بدموع ساخنة تسيل على وجهى ٠٠ ولم أدر ماسببها ٠٠ هل كنت أبكي من أجل النـاس ؟ أم كنت أبكي من أجـل نفسي ؟!٠٠

الفهرس

مؤسسة جواد للطباعة والتصوير
هاتف: ٨٣٨١٥٧-٨٢٧٧٠٢ - بيروت - لبنان

مؤلفات الدكتورة نوال السعداوي

من منشورات دار الآداب

- امرأتان في امرأة
- موت الرجل الوحيد على الأرض
- امرأة عند نقطة الصفر
- أغنية الأطفال الدائرية
- موت معالي الوزير سابقاً
- الخيط وعين الحياة
- الغائب
- كانت هي الأضعف
- مذكرات طبيبة
- تعلمت الحب
- حنان قليل
- لحظة صدق